قلوب عبير

آن ويل

بوهيميا

www.elromancia.com

مرمورية

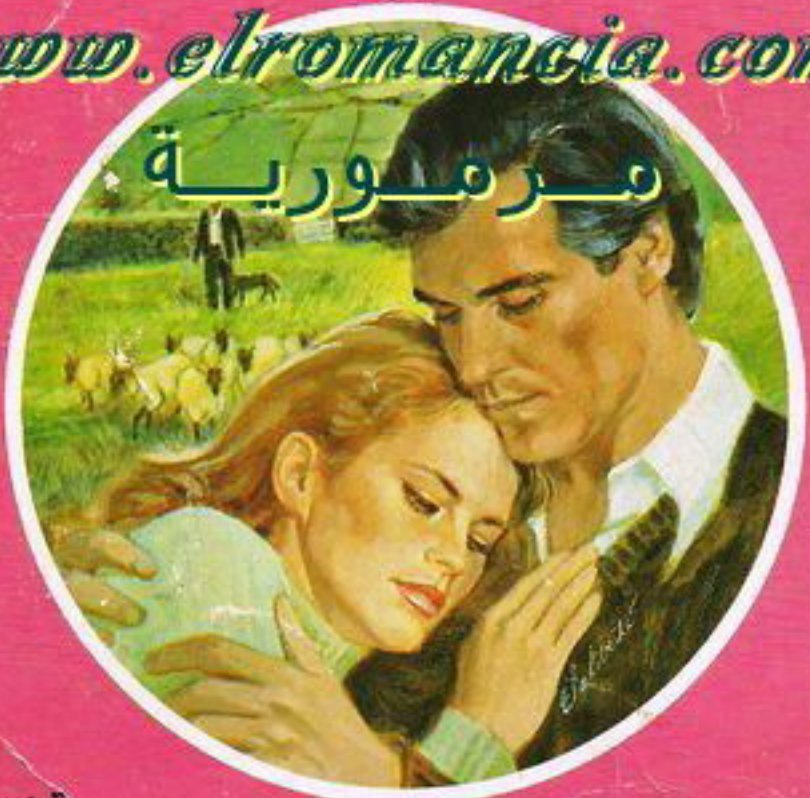

ق ٢٩

قلوب عبير

HARLEQUIN — "ABIR" — No. K29

بوهيميا

لعل الحب هو العاطفة الأكثر اثارة للحيرة والأكثر غرابة فهو لا يخضع لأي مقياس او قياس، انه الشعور البوهيمي الذي ما انفك يتحكم بقلب العالم من أقصاه الى أقصاه، حتى قيل بسببه تدور الأرض. . .

جوسلين فتاة عشقت الحياة الهادئة البسيطة بعكس ابنة عمها كاميليا الجميلة الناقمة الى الشهرة وكان زواج كاميليا من رجل فرنسي، فلاح، مبعث قلق للعائلة فهي دلوعة وطرية. وانتهى بها الأمر ان طلبت من كاميليا الحضور الى منطقة الكامارغ القاسية المليئة بالخيول والثيران والرياح العاصفة لمساعدتها اثناء حملها. وهناك عرفت جوسلين قسوة العيش وخشونة الرجال بخاصة جيرفيه شقيق زوج ابنة عمها، الذي أذاقها الأمرّين بتسلطه ورهبته. ولكن كلما تأخر بها البقاء في الكامارغ كلما تعمقت جذورها في تلك البلاد النائية، حيث الحب ما زال بوهيمياً بكراً كما كان منذ بداية الكون.

لبنان ١٢ ل.ل.	الكويت ١ د	اليمن ٤ ر	السودان ٨٠٠م
سورية ١٢ ل.س	الامارات ١٢ د	تونس ١٫٥٠٠ د	U.K. £ 150
الأردن ٨٠٠ ف	البحرين ١٫٥٠٠د	ليبيا ١ د	France F 10
العراق ٥٠٠ ف	قطر ١٢ ر	المغرب ٥ د	Greece Drs 200
السعودية ١٢ ر	عمان ١٫٥٠٠ر	مصر ١٢٥ ق	Cyprus P 150

١ - جاءت الرسائل وفيها رسالة لم تتعود جوسلين تلقيها من ابنة عمها كاميليا التي تزوجت رجلاً فرنسياً وهي حامل وتطلب حضور جوسلين بسرعة. . . انها رحلتها الأولى خارج الحدود.

كانت جوسلين تعد المهلبية الساخنة عندما سمعت باب علبة البريد ينفتح ثم ينغلق. سحبت القدر عن النار وخرجت الى البهو لاحضار الرسائل. من بين عشرات المغلفات العائدة كلها الى دعايات ومنشورات طبية ومخبرية، وجدت فاتورة للغاز ورسالة من فرنسا.

كانت الفتاة تكتب الى كاميليا رسالة كل شهر، لكن ابنة عمها لم ترسل اليها سوى بطاقات بريدية تدون على قفاها بعض الكلمات السريعة المقتضبة.

وضعت الفتاة الرسالة في جيب فستانها وناولت والدها الفاتورة بينما كان يهبط السلم، ثم قالت:

- صباح الخير، يا ابي. الفطور جاهز تقريباً. وكيف حال الطفل؟

- انه صبي ووزنه اربعة كيلوغرامات.

قبّل الدكتور بيشوب ابنته على خدها ورافقها الى المطبخ. مثله، كانت جوسلين ممشوقة القامة، طويلتها. وكانت رفيقاتها في المدرسة ينعتنها «الفاصوليا الخضراء» مما اضطرها الى تقويس ظهرها لتبدو اقصر مما هي. لكنها الآن، في التاسعة عشرة من عمرها وتتقبل نفسها ببساطة واعتزاز.

نادراً ما تتناول عائلة بيشوب وجبات طعامها على مائدة السفرة في غرفة الطعام الواسعة، بل تفضل البقاء في المطبخ، المطل على الحديقة والذي تدخله الشمس طوال النهار. لكن، في هذا الصباح من نهار الاثنين، غابت الشمس عن مائدة الفطور، المغلفة بشرشف ابيض معرق والمليئة بالآنية الفخارية البيضاء والزرقاء الخاصة بمنطقة كورنويل الشهيرة الواقعة في شرق انكلترا. بعد فصل شتاء ناعم ورطب، اشتد البرد فجأة، وبدأت السماء ترسل ثلجاً في اواخر شهر آذار/ مارس.

جلس الأب امام المائدة ووضع فوطة حول عنقه، فسألته الابنة:

- في اي ساعة عدت الى المنزل، يا ابي؟

- جاء المولود السعيد في الواحدة بعد منتصف الليل، وانا عدت قبل الثانية بقليل. لكنني بدأت اتساءل في اي ساعة عادت الآنسة ديفيس، الممرضة الشابة. ولحسن الحظ ان الآنسة مايس ستستأنف عملها اليوم. في كل حال، آن لنا ان نوظف ممرضة ثالثة، على الأقل نصف دوام، ما دامت المنطقة تستمر في الازدهار والعمران ويزيد كثافة سكانها يوماً بعد يوم.

قبل الحرب جاء جد جوسلين، الطبيب ايضاً، وسكن في القرية

ومارس فيها مهنته واورثها الى ابنيه، واحدهم يدعى جون بيشوب، والد جوسلين. وظلت القرية على ما كانت عليه قبل الحرب، الى حين اصبحت الفتاة في سن المراهقة، انه حي كبير، هادىء الجو يذكر بالحياة الريفية القديمة. لكن، حول البلدة، اختفت الحقول والبساتين الشاسعة لتحل مكانها المنازل والمباني الجديدة. وفيها اسكنت البلدية العمال الزراعيين الذين كانوا يعيشون في اكواخ خالية من المراحيض والماء والكهرباء. وقام متعهدو البناء بفرز اراض كثيرة، عالمين مسبقاً ان المدينة المجاورة سيصل بها الوقت الى عدم استيعاب جميع السكان، الذين سيبدأون بالنزوح الى الجوار وخاصة الى الضواحي القروية، حيث ستبنى من اجلهم المنازل ويتم استقرارهم فيها بشكل نهائي.

وهذا ما حدث بالفعل منذ اكثر من سنة. امتلأت المنازل الجديدة باصحابها ومستأجريها، وغيرها قيد البناء. واصبحت مدرسة القرية الابتدائية مزدحمة بالتلاميذ، وازداد نشاط الدكتور بيشوب، الذي، بواسطة ممرضتيه، ساعد على انجاب اطفال يفوق عددهم بكثير مواليد السنوات الفائتة.

وبسبب هذا التطور السكاني، وضع اعلاناً في الصحف المحلية يطلب فيه طبيباً مساعداً. وبعد غربلة المتقدمين، تم اختيار طوم كالي، الذي يلم بشؤون الطب القروي، كونه ابن مزارع قديم.

وبينما كان الدكتور يرد على مكالمة هاتفية وهو يحتسي الشاي، وصل طوم وقال:

- صباح الخير، يا جوسلين. هل بقي شاي؟

دخل الى المطبخ وهو يفرك يديه ببعضهما لشدة البرد، والابتسامة تضيء وجهه. انه شاب قصير القامة، سمين، بكتفين عريضتين

وعينين زرقاوين، وشعر غزير اشقر. احمر وجه جوسلين وقالت:

- ساعد المزيد منه.

استلطفت جوسلين هذا الطبيب الشاب منذ ستة اشهر مضت لدى وصوله الى القرية. ومنذ بداية السنة، يخرجان معاً لحضور الافلام والمسرحيات والحفلات الراقصة. صحيح انها تشعر تجاهه بالمحبة وتشاركه بعض افكاره وانتماءاته، لكن لم يخطر ابداً في بالها ان طوم يشعر تجاهها بشيء يفوق الصداقة العادية.

ومساء امس، وبينما كانا عائدين من حفلة سينمائية، راح يعانقها بانفعال، لكن من دون شغف. وقبل ان تنام فكرت مراراً بما حدث، هل تأخذ قراراً صعباً، غير منتظر، او تترك الأمور تسير على طبيعتها وعفويتها. ربما من الأفضل ان تفهمه بلياقة بأنها على غير استعداد للانخراط في مغامرة عاطفية جديدة. وحيال هذا التردد الكبير، لم تنم جيداً وشعرت بتوتر واضطراب وحيرة، لم تعرف مثلها من قبل.

القى الطبيب الشاب نظرة على ما بقي على مائدة الفطور وقال:

- أم م م م... مهلبية وبيض مقلي! اراهن بأن والدك لن يموت جوعاً! انا، لم اتناول سوى زبدة ومربى، هذا الصباح.

ضحكت جوسلين وشعرت بارتياح لتصرفه الطبيعي تجاهها وقالت:

- هل تريدني ان اقتنع بأن السيدة براين لا تغذيك كفاية. سمعتها شهيرة بأنها طاهية ماهرة، ولهذا السبب طلب منها والدي ان تؤجرك غرفة عندها.

- صحيح، انها تعتني بي جيداً. لكن مهما يكن، لن امانع في تناول قطعة الخبز المحمصة هذه، اذا قدمتها لي.

اجابت وهي تملأ ابريق الشاي:

- تفضل، ارجوك.

ثم اضافت وهي تراه يغمس الخبزة في وعاء المهلبية:

- اذا لم تنتبه لنفسك من كثرة الطعام، فستصبح سميناً اكثر.

- كلا، انا اعمل كثيراً هذه الأيام. اما انت، فلا اراك تحرمين نفسك من شيء، ولا ارى اي اشارة سمنة فيك. هذا الثوب الازرق جميل عليك. وكيف جرى انك لا تشكين في شعرك ملاقط، كمعظم النساء. هل نزعتها قبل وصولي.

لمست جوسلين شعرها الكستنائي الفاتح: انه مالس، يلتوي في اطرافه بشكل طبيعي. غالباً تتركه ينسدل على كتفيها، ونادراً ما ترفعه بشكل كعكة فوق رأسها. يكفي ان تغسل وجهها بالماء البارد، وتفرك اسنانها، ثم تسرح شعرها لتكون مستعدة كل صباح.

قالت بصوت خفيف:

- آه، اكره ان انام والملاقط في شعري.

دخل والدها المطبخ واعلن فوراً:

- كانت السيدة اليس تحدثني على الهاتف. يبدو انها امضت الليل كله ساهرة على ابنها برنارد الذي كان متقوقعاً في سريره من شدة الألم. اظنه يعاني من التهاب في الزائدة. طوم، ارجوك ان تمر على المزرعة، في الحال.

- حسناً.

جرع الشاب فنجان الشاي ثم خرج.

قطب والد جوسلين حاجبيه وقال:

- يا له من طقس سيء. لن افاجأ اذا تكاثف الثلج، اليوم.

ذكرته جوسلين حين قالت:

- لا اهمية لذلك. فبعد اسبوعين ستكون في بلاد الشمس.

نظر اليها بعينين مليئتين بالمحبة وقال بحرارة:

- انت شديدة اللطف، يا جوسلين. لا تقلقي، فانا سعيد بذلك.

- آه، يا ابي، اما زلت تعتقد بأنني اتصنع الحب لأليزابيت؟ كلا، انا اجدها امرأة رائعة، وروبرت كذلك. يا الهي، الساعة اشرفت على التاسعة. ستصل انيتا بعد قليل ولم افرغ مائدة الفطور بعد.

انيتا لاين امرأة في الستين من عمرها، نشيطة وظريفة. منذ صغرها تتذكرها جوسلين في هذا البيت. فقد الطبيب زوجته عندما كانت ابنته في الخامسة من عمرها، فاعتنت بها السيدة لاين وعالجتها خلال امراض الطفولة، كما قامت بادارة المنزل، الى ان اصبحت جوسلين في عمر يسمح لها بأخذ هذه المسؤوليات عنها. بعد شهادة البريفيه، توقفت الفتاة عن الدراسة اذ اقنعت والدها بضرورة البقاء في المنزل بدل العمل كموظفة في احد مكاتب المدينة. تأتي انيتا مرتين في الاسبوع لمساعدتها كي يتسنى لها الاعتناء بالحديقة وبأمورها الشخصية الاخرى.

ولما وصلت انيتا على متن دراجتها القديمة، كانت جوسلين قد انتهت لتوها من غسل الصحون والفناجين. فسألت انيتا لاهثة:

- هل انجبت أليس لامب اخيراً؟

ساعدتها جوسلين في خلع معطفها وقالت:

- نعم. انجبت صبياً. آه، يا انيتا، يداك مجلدتان. ادخلي الى الدفء، ساعد لك فنجان قهوة.

- ساعديني على نزع حذائي، يا حبيبتي، من فضلك. صرت سمينة الى درجة اصبح صعباً علي انتزاعها بنفسي.

جلستا في المطبخ ربع ساعة تثرثران وتحتسيان القهوة، قبل ان

تبدأ، كل من جانبها في التنظيف المنزلي الاسبوعي.

وبينما كانت جوسلين تصعد الى الطابق الأول بغية توضيب الاسرّة، تذكرت رسالة كاميليا. سحبتها من جيبها ومزقت الظرف وجلست امام طاولة الزينة في غرفة نومها وشرعت تقرأ رسالة ابنة عمها المكتوبة بخط سيء بالكاد استطاعت قراءته. تقول الرسالة:

«عزيزتي جوسلين

«الف شكر على رسالتك الطويلة الرائعة. ولا يمكنك ان تعرفي بأي شوق انتظر وصول البريد، وانا مسمرة في هذا المكان المعزول، حيث لا انسان انكليزياً على بعد اميال من هنا. الخبر الذي بشرتني به ادهشني كلياً. لم اكن اتخيل ابداً ان عمي جون سيتزوج من جديد. وحسب ما قلته لي، ان خطيبته تناسبه تماماً. لكن ربما تتقبلين بصعوبة ان يأخذ احد غيرك ادارة ومسؤولية هذا المنزل.

«لدي فكرة رائعة! عندما يعود العروسان من شهر العسل، لماذا لا تأتين لزيارتي وقضاء اسبوع او اسبوعين معي. انت كنت تقولين لي دائماً بأنك تعبدين السفر، وهذه فرصة العمر بالنسبة اليك.

«جوسلين، ارجوك، تعالي. والا سأجن. جان-مارك لطيف جداً، لكنه يتغيب طول النهار والآخرون ما زالوا غير مسرورين لأنه تزوجني. لا يظهرون له ذلك، لكنهم ينتقمون مني من وراء ظهره. اخوه، نادراً ما يحدثني، لكنه يرمقني بنظرات غامضة، غاضبة، وعمته، اذا استطاعت فلن تتأخر لحظة بوضع السم في طعامي للتخلص مني. امس كنت نائمة، ولما افقت، رأيتها منحنية فوق رأسي متذمرة. انها تخيفني. شيء شيطاني ينبع منها.

«لو باستطاعتي فقط الخروج من حين الى آخر، لأموه عن نفسي، بالرغم من عدم وجود اي مكان يستحق الزيارة في هذه العزلة، لكن

الطبيب نصحني بأن اظل ممددة حتى ولادة الطفل. ارجوك، حبيبتي جوسلين، اتوسل اليك، تعالي! انا بحاجة ماسة ان يكون احد من افراد عائلتي قربي. احياناً اشعر برغبة في الموت، لشدة رعب هذا المكان. وربما اموت قبل ولادة الطفل. هذه الفكرة اصبحت هاجسي اليومي وتجلب لي الكوابيس المرعبة. حتى جان-مارك لا يفهم. ويضع اللوم كله على اعصابي. جوسلين، يجب ان تأتي، لا استطيع الصمود وحدي. كاميليا».

شعرت جوسلين بقلق امام لهجة هذه الرسالة، وقررت ان تريها لوالدها في الحال قبل ان يبدأ بزيارة مرضاه. لكنها فضلت ان تنتظر موعد الغداء كي تتمكن من مناقشة الأمر بهدوء وسعة.

وصلت اليزابيت راندل حوالى الحادية عشرة ووجدت جوسلين راكعة وسط تلة من الشراشف والمناشف، فقالت:

- صباح الخير، يا جوسلين. يبدو انك شديدة الانهماك بالعمل.

نهضت الفتاة واجابت:

- اهلاً وسهلاً بك. احاول ترتيب المنزل قبل وصولك. هيا بنا نأخذ القهوة، سأنهي العمل بعد قليل. هل ستجلبين معك الكثير من البياض، يا اليزابيت؟

- اقل شيء ممكن. روبرت ينمو بسرعة والملابس الصغيرة ارسلها الى المعوزين ولا ادعها تتكدس عندي.

خطيبة الطبيب امرأة نحيلة وسمراء، في الاربعين من عمرها، ارملة وام لصبي في الثالثة عشرة من عمره. تسكن القرية منذ سنة، وتعرف جوسلين بأن والدها وقع في حبها منذ وقع عليها نظره.

وتتذكر الفتاة والدتها بغموض ولا تفهم لماذا توقع معظم اصدقائها ان تغضب على ابيها لأنه سيتزوج مرة ثانية. وهو رجل جذاب

ولطيف للغاية، في الثامنة والاربعين من العمر. وكيف باستطاعتها ان تشعر بالغيرة تجاه اليزابيت، تلك المرأة الناعمة التي تتمتع بحس مرهف وروح النكتة والفكاهة. بالعكس كانت فرحة جداً لهذا الاتحاد.

جلستا في الصالون حول القهوة، فقالت اليزابيت:

- وصلتني بطاقة من محلات سميث، يعلن فيها المدير ان ثوب العرس اصبح جاهزاً. وما زلت بحاجة الى مساعدتك لاختيار القبعة المناسبة.

- يسرني ان ارافقك الى المدينة. انا ايضاً بحاجة لبعض الشراءات.

بعد حديث عادي ومقتضب، قالت جوسلين:

- وصلتني صباح اليوم رسالة من ابنة عمي كاميليا، تلك التي تزوجت من شاب فرنسي التقت به في باريس حيث كانت تعمل كعارضة ازياء. لقد سبق وحدثتك عنها، هل تتذكرين. . . والدها اخ والدي البكر. انه طبيب ايضاً ويعيش في بلاد الشرق وما التقيت به مرة. انه يدير مستشفى ريفياً في اقاصي غينيا الجديدة.

- نعم، اخبرتني ذلك عندما تزوجت ابنة عمك بغتة. والداها منفصلان، اليس كذلك؟

- نعم. يقول والدي انه ما كان مفروضاً ان يتزوجا من الأساس، لأنهما لا يناسبان بعضهما البعض على الاطلاق. عمي ديفيد يحب عمله كثيراً وزوجته جانيت رائعة الجمال وتحب الحياة والمجتمع. استطاعت البقاء معه اربع سنوات، لكنها لم تحتمل طويلاً، فهربت مع رجل آخر. لا يمكن لومها لو انها ما تخلت عن ابنتها، كاميليا.

- واخبرتني ايضاً ان كاميليا درست في اوستراليا، اليس كذلك؟

- نعم. كانت في مدرسة داخلية في بريسبان وتأتي الى غينيا الجديدة في العطل. ولما اصبحت في السابعة عشرة من عمرها، اقنعت والدها كي يسمح لها ان تأتي الى انكلترا للتعرف على عائلتها. عاشت سنتين في لندن عند جدتي واصبحت عارضة ازياء. نجحت في هذه المهنة واشترت شقة فخمة وسيارة جديدة.

- ثم تخلت عن كل شيء لتتزوج من هذا الشاب الفرنسي.

- نعم. تعرفت اليه لأسابيع قليلة قبل ان تتزوجه. لو اعلمتنا بالأمر مسبقاً، لحاول والدي زيارتها واقناعها بالتخلي عنه او التحلي بالصبر. لكن، للأسف، عرفنا بامر زواجها عندما ارسلت لنا بطاقة بريدية من مدينة كان الفرنسية، حيث كانت تقضي شهر العسل. يتهيأ لي الآن، ان التاريخ يتكرر. سأقرأ عليك رسالتها وبامكانك الحكم بنفسك.

قرأت عليها جوسلين الرسالة بصوت عال، دون ان تقرأ الفقرة العائدة الى زواج عمها. بعد قليل، قالت اليزابيت:

- انها تصرخ من القلب، اليس كذلك؟ اين يسكن العروسان، في فرنسا؟

- في البداية سكنا قرب مرسيليا. لكن عندما حملت كاميليا، استقرا في بلدة زوجها، وهي مزرعة كبيرة تخص شقيقه. هل تعتقدين انها حقاً يائسة ومنهارة، بسبب وضعها الصحي، ام انه وضع خطر حقاً؟

- انتظار مولود جديد، وضع دقيق نفسياً، بخاصة في الأشهر الثلاثة الأخيرة. ويبدو اكثر صعوبة اذا كانت المرأة الحامل تعيش في الغربة، بعيدة عن كل ما اعتادت اليه. بنظري، عارضة ازياء في عائلة مزارعين قرويين، كمزيج الماء والزيت من الصعب تحقيقه...

لماذا لا تذهبين بنفسك للتحقق من صحة ما يجري هناك؟

اندهشت جوسلين وقالت باستغراب:

- انا، اذهب الى فرنسا.

ابتسمت اليزابيت وقالت:

- ولم لا. انا معجبة بك كثيراً، خاصة لطريقتك في ادارة هذا المنزل، ولاهتمامك البالغ بوالدك. ستصبحين في المستقبل زوجة مثالية، لكنك ما تزالين في التاسعة عشرة من العمر، يا جوسلين. بالنسبة الى بنات جيلك، انت تعيشين حياة ثابتة، ويجب عليك رؤية العالم قليلاً، قبل ان يأتي النصيب ليخطف حريتك وشبابك المراهق.

بعد ساعتين، كان الطبيب بيشوب، يقول الكلام نفسه:

- ستكون مغامرة بالنسبة اليك. لا شك بأن كاميليا تؤزم الوضع، لكن لا بد انها تجد صعوبة في التكيف بسهولة وبالسرعة المطلوبة. هذا ما كنت اخشاه: فخليط الجنسيات يجعل الزواج معقداً دائماً.

- لا اعتقد ان المشكلة تقع بين الزوجين، بل مع عائلة الزوج. العمة العجوز تبدو انسانة صعبة ولا تحتمل.

- انه لخطأ كبير ان يعيش الزوجان تحت سقف واحد مع العائلة... اتساءل لماذا يجب على كاميليا ان تبقى طريحة الفراش. انها لا تشكو من فقر دم، على ما اظن. مهما يكن الأمر، اذا وافقت على قضاء اسبوعين معها، سترين الأمور على ضوء، وربما باستطاعتك تسويتها، قدر المستطاع.

- لكن مصاريف الرحلة ستكلف غالياً، اليس كذلك؟

- لا اعتقد. اذا كنت ذاهبة مع اليزابيت الى السوق، استعلمي بوضوح عن ثمن البطاقة في الطائرة، ذهاباً وإياباً.

في المساء اعلنت الفتاة لوالدها بأن بطاقة السفر ستكلفها حوالى الاربعين جنيهاً استرلينياً، ثم اضافت تقول:

- لكنني لا اتوقع من عائلة العريس ان تعيلني مجاناً. ومن المفروض ان اشترك على الاقل في مصروف الطعام. واذا بقيت هناك ثلاثة اسابيع مثلاً، سأحتاج الى مبلغ مماثل، اي في المجموع، حوالى ثمانين جنيهاً استرلينياً.

ناولها الطبيب شيكاً وقال مبتسماً:

- كنت سأشتري لك مجوهرة، هدية الزواج، لكنني اعتقد بأن رحلتك الى فرنسا ستكون فكرة افضل.

- لكن، ابي! ليس هذا عرسي انا.

- ابن العروس سينال دراجة نارية كهدية عرسنا. ولا ارى لماذا تحرم ابنة العريس من هدية لمثل هذه المناسبة.

- لكنني وفرت ١٥ جنيهاً من مصاريف المنزل لهذا الشهر.

- صحيح! في هذه الحال، سوف اخفض الميزانية من الآن فصاعداً! حسناً، احتفظي بها واشتري بعض الملابس الأنيقة، قبل سفرك.

- مزرعة آل سانتون لا تقع في الكوت دازور، انما في غرب مارسيليا، على ما اظن. ولمثل هذا المكان لست بحاجة الى ملابس انيقة.

في سريرها، تلك الليلة، توصلت جوسلين مع نفسها الى نتيجة منطقية. هذه الرحلة، لن تخدم معنويات ونفسية كاميليا فحسب، بل ستسمح لأليزابيت ان تتمرن على ادارة المنزل والتصرف به كما تشاء، كما سيساعد الفتاة على ان تنظر الى مستقبلها بطريقة واضحة. خلال شهر العسل في جزر فيشي، اهتمت جوسلين بروبرت،

ابن زوجة ابيها: توصله الى المدرسة كل صباح، ثم تذهب الى السوق في المدينة. واشترت فستاناً واحداً وسروالين وقميصين متناسقين وحذاء مريحاً، استعداداً للرحلة المقررة الى فرنسا.

وكان طوم الطبيب المساعد يناوب مكان والدها كل مساء ولم يستطيعا الخروج معاً مرة واحدة. لكنه جاء الى المنزل، انما وجود روبرت منعهما من اي جلسة وحدهما.

ويوم موعد عودة العروسين، امضى روبرت الصباح بكامله في تنظيف وتلميع سيارة الطبيب بيشوب، بينما انهمكت جوسلين في المطبخ تعد الطعام وتضعه في الفرن قبل ذهابها الى محطة القطارات.

في الرابعة والنصف بعد الظهر كانت جوسلين وروبرت في المحطة ينتظران وصول القطار. اخيراً هتف الصبي عندما توقف القطار ونزل ركابه:

- ها هما!

اضافت جوسلين وهي تلوح بيدها:

- آه، انظر كم لوحت الشمس بشرتهما! لا شك انهما امضيا وقتاً ممتعاً.

ثم قالت لنفسها: «يبدو ابي عشر سنوات اصغر من عمره».

اقترب العروسان. فقبلت اليزابيت ابنها اولاً، ثم جوسلين، وقالت:

- عزيزاي الحبيبان، كم انا فرحة لرؤيتكما! كنا في الجنة، لكننا اشتقنا اليكما كثيراً. في السنة المقبلة سنذهب معاً. هل تم كل شيء على ما يرام؟

ابتسمت جوسلين وقالت:

- نعم. اكتشفت معنى الفرح في ان يكون لي اخ. لكنني لا اعرف

اذا كان روبرت قد فرح مثلي، بأن تكون له اخت كبرى.

قال الصبي:

- جوسلين فتاة لذيذة وممتازة، لكنها ليست مثلك، يا امي، فهي لا ترغمني على غسل يدي ووجهي باستمرار.

اجابت اليزابيت ضاحكة:

- هذا يعني انك لم تنظف اذنيك ابداً منذ رحيلنا. آه، كم انا مسرورة للعودة الى المنزل، وانت يا جون هل تشعر بالشيء نفسه؟

هز الطبيب رأسه موافقاً. ولم وصل الجميع امام ساحة المحطة، لاحظ الطبيب لمعان سيارته وقال مندهشاً:

- من لمع السيارة. لم يسبق ان رأيتها براقة هكذا.

اجاب روبرت بفخر:

- انا، يا سيدي. قالت لي جوسلين انك لا تمانع اذا اعتنيت بها.

- هذا لطف كبير منك، يا روبرت. انه عمل جيد بالفعل... افضل بكثير مما يفعلونه في محطات الوقود او الكاراجات الخاصة. اذا رغبت في تنظيفها من وقت الى آخر، سأعلمك قيادتها على مدرج الطيران القديم.

بفرح كبير هتفت جوسلين لنفسها: «آه، برافو، يا ابي... روبرت يرغب ذلك كثيراً...».

كانت الفتاة تخشى الا يستطيع روبرت تحمل سلطة والدها، خاصة لأنه يجتاز في هذه المرحلة سناً صعبة. فما زال يعلق صورة والده في غرفته ولا شك انه ما زال يتذكره لأن ايان راندل مات عندما كان الصبي في الثامنة من عمره.

في حوالى منتصف الليل، صعدت جوسلين الى غرفتها بعدما اعدت حقيبتها لرحيلها باكراً في اليوم التالي. لكنها لم تنم بسهولة.

الخوف والاثارة والمجهول، كل هذا جعلها متوترة الاعصاب. ولما افاقت في الصباح على صوت المنبه شعرت بتقلص حاد في معدتها، فلامت نفسها قائلة: «كم انا حمقاء! لم اعد فتاة صغيرة، ولست ذاهبة الى آخر العالم».

عندما انتهت من الاغتسال وارتداء ملابسها، نزلت الى المطبخ واعدت الشاي وحملته على صينية الى غرفة والدها. احست بشعور غريب لرؤية اليزابيت قربه بشعرها المشعث. فتحت الستائر وقالت:

- آسفة لايقاظكما باكراً، لكن طوم سيصل قريباً جداً ليوصلني الى المحطة، ولا احب الذهاب من دون ان اودعكما.

قالت اليزابيت باستغراب وفرح:

- آه، الشاي! يا لهذا الترف! شكراً، يا جوسلين. اظن بأنك متوترة قليلاً. لا تنسي ان تتصلي بنا هاتفياً، حين وصولك.

قالت الفتاة معترفة:

- لم اعد اشعر برغبة في الذهاب. آمل الا يتابني الغثيان خلال الرحلة.

طمأنتها زوجة والدها قائلة:

- طبعاً لا. هذا نادر حصوله في الطائرة. آه، ترتدين بزة جميلة، هل هي جديدة؟

- لا، لكنني لا ارتديها الا نادراً. لا يسعني التصديق بأن غداً، في مثل هذا الوقت، سأفيق في فرنسا. كما اتساءل اي نوع من الاستقبال سيخصني به آل سانتون.

قال الطبيب ناصحاً:

- في كل حال، لا تقفي دائماً الى جانب كاميليا، ولا تقفزي الى

الاستنتاجات بسرعة، ربما تكون ابنة عمك فتاة طائشة. لكنها تكبرك بثلاث سنوات وباستطاعتها ان تدافع عن نفسها وحدها. كوني حذرة، يا ابنتي!

وبينما كانت ساعة الحائط في الصالون تدق دقاتها السبع، سمع زمور سيارة طوم. خرج الطبيب مع ابنته، وضع حقيبتها في الصندوق، ثم قبلها لآخر مرة قائلاً:

- الى اللقاء، يا حبيبتي. استمتعي بوقتك كثيراً.

- الى اللقاء، يا ابي، الى اللقاء... الى اللقاء.

في المحطة، اصر طوم ان ينتظر القطار معها. وخلال الطريق الى المحطة لم يقل شيئاً، لكن جوسلين كانت تشعر بأنه لا بد ان يظهر عن احاسيسه في اللحظة الأخيرة. لما دخل القطار الى محطته، صعد طوم مع الفتاة واختار لها مقعداً قرب النافذة، فقالت له:

- لا ضرورة لأنتظار اقلاع القطار. شكراً على كل شيء، يا طوم.

ضمها اليه بشدة وقال:

- سأشتاق اليك كثيراً، يا جوسلين.

- لن اغيب سوى ثلاثة اسابيع.

- لا تنسي ان تكتبي لنا بعد وصولك الى فرنسا.

- طبعاً.

ثم اضافت بابتسامة ساخرة:

- انا لم اعد تلميذة مدرسة.

قال مازحاً:

- مهما يكن، فلا تتحدثي الى اشخاص تجهلينهم.

- هذا لا استطيع فعله بطبيعة الأحوال. ولغتي الفرنسية ليست جيدة، لكنني آمل في تحسينها.

- اياك ان تقعي في غرام شاب فرنسي!

- آه، يا طوم. انزل من القطار. انهم يغلقون الأبواب. الى اللقاء. سأرسل اليك بطاقات بريدية.

اطلقت الفتاة تنهيدة ارتياح عندما نزل طوم. لكنه سرعان ما عاد وصعد القطار واخذها بين ذراعيه وعانقها.

من محطة فيكتوريا في لندن، استقلت جوسلين سيارة اجرة نقلتها الى مطار هيثرو الدولي. وهناك، في جناح شركة الخطوط الجوية الفرنسية سجلت بطاقتها وصعدت مع الركاب في طائرة الكارافيل التي اقلعت في الحادية عشرة وهبطت في مطار اورلي ظهراً. بعد نصف ساعة استراحة، انطلقت الطائرة من جديد لتهبط في الثانية والنصف في مطار مارينيان. من هناك استقلت باص شركة الطيران فاوصلها وبقية الركاب الى قلب مارسيليا.

توجهت جوسلين في الحال الى محطة القطارات لتستعلم عن مواعيد الاقلاع الى مدينة آلرز، فقيل لها ان موعده في الخامسة. امامها ساعتان لبعض التجوال السياحي. وضعت الفتاة حقيبتها في امانة المحطة وانطلقت في شوارع مارسيليا، الى ساحة الكانوبيار، المكتظة بالمقاهي والمحلات. فامتلأ قلبها فرحاً.

في انكلترا، شوارع القرية في مثل هذا الوقت لا شك انها فارغة. الرجال ينعسون قرب موقد النار او يتنزهون في الحديقة. الأولاد يعودون من المدرسة، ومعظم النساء يسترحن بعد الانتهاء من غسل الصحون او يحضرن الشاي.

وجوسلين، الآن، على بعد الف كيلومتر من انكلترا. هذه المدينة تعج بالحياة والحركة المستمرة. خدم المقاهي، بصوانيهم المليئة قهوة ومقبلات يتنقلون من طاولة الى طاولة. البحارة بالقبعات الحمراء

يصفرون ويتحرشون بالفتيات الجميلات اللواتي يقدن الدراجات... رسّام متشرد، ملتح، ذو شعر طويل، يحاول بيع لوحاته التجريدية، ذات الألوان الفاقعة، الى المارة والأجانب.

مشت جوسلين حتى المرفأ القديم، ثم سلكت الرصيف المواجه نحو الكانوبيار. استجمعت شجاعتها ودخلت الى احد المقاهي واختارت طاولة على الشرفة، بانتظار قدوم الخادم. شعرت الفتاة بانزعاج، لكن لا احد ينظر اليها. فهم الخادم ما طلبته. واخيراً استرخت في مقعدها واحست بالطمأنينة والثقة. بسرعة احضر الخادم فنجان القهوة مع الكريما وقطعة حلوى باللوز. وكتذكار، وضعت الفتاة الورقة الملفوفة على قطعة السكر، في حقيبتها، بسبب وجود عنوان واسم المقهى عليها.

بقيت هناك حتى موعد ذهابها الى محطة القطار. جلست تنظر الى حركة السير المزدحمة والناس، تصغي الى احاديثهم علها تفهم ما يقولون... انها حرة، مستقلة، تكتشف العالم، هي التي لم تعش حتى الآن سوى حياة رتيبة اعتيادية.

في السادسة وصلت الى مدينة آلرز. ساعدها الحمال على رفع حقيبتها وسألها:

- هل تريدين سيارة اجرة، يا آنسة.

وبلغة فرنسية مترددة، اجابت:

- كلا، شكراً. هناك من ينتظرني.

بقيت على رصيف المحطة، تنظر الى المارة، متوقعة قدوم جان-مارك في اي لحظة. تعرفه من صورة ارسلتها كاميليا منذ فترة قصيرة. لكن، لم يأت احد. ربع ساعة مضت وهي واقفة قرب حقيبتها، قلقة ومتوترة وخائفة جداً. اخيراً سمعت صوتاً يقول:

- آنسة بيشوب.

انتفضت في مكانها والتفتت لترى رجلاً، ممشوق القامة، يرتدي سترة جلدية قديمة وقبعة رمادية واسعة، لم ينتزعها عندما قدم نفسه قائلاً:

- انا جيرفيه سانتون. آسف لتأخري. من فضلك ان تتبعيني...

انحنى مرحباً وحمل الحقيبة وسبق الفتاة، خارجاً من المحطة.

ريح عنيفة عصفت في الخارج، وهنأت الفتاة نفسها لانها ارتدت معطفاً سميكاً واقياً. وضع الرجل الحقيبة في صندوق سيارة الجيب، ثم ساعد الفتاة على الصعود والجلوس في المقعد الأمامي، ووضع فوق ركبتيها بطانية صوفية، فأجابته بخجل:

- شكراً، يا سيد.

نظر اليها الرجل مفصلاً وهو يدور حول السيارة ليجلس امام المقود. خف الازدحام والشمس تشرف على المغيب، وبرد الهواء. خارج المدينة، الريح تعصف بقوة وتؤرجح سيارة الجيب بعنف. من حين الى آخر، تهب الرياح دافعة بالسيارة نحو الحفر. فالطريق غير معبدة، ومليئة بالحجارة المتطايرة. تهيأ للفتاة ان عظامها تفككت. فجأة عم الظلام ولم يعد باستطاعتها تأمل القرى الريفية المجاورة. قالت بصوت مرتفع كي يسمعها الرجل، المنصب بكل اهتمامه على الطريق:

- كم يبقى من مسافة لنصل الى مزرعتك؟

- حوالى ٢٥ كيلومتراً.

ارتعبت الفتاة وخارت قدماها. لا شك انهما يجتازان منطقة مليئة بالمستنقعات. تمسكت الفتاة بمقعدها، متقلصة اليدين وقالت لنفسها: «يا لكاميليا المسكينة! افهم الآن لماذا ترى هذا المكان منعزلاً!».

بدت الطريق كأنها بلا نهاية. السيارة تجتاز من حين الى آخر جسوراً خشبية تدفع الفتاة الى الأمام باستمرار. والرجل لا يعتذر عن صعوبة الرحلة، ربما لأنه اعتاد عليها.

اخيراً توقفت السيارة امام منزل مضاء، فحمل الرجل حقيبة الفتاة بيد وتأبط ذراعها باليد الثانية وساعدها على اجتياز الساحة المعبدة، حتى وصلا الى مدخل المنزل.

لم يسمع احد صوت محرك السيارة لشدة الريح القوية. دق الجرس، فتحت الباب امرأة، بلباس اسود، وبيدها قنديل غاز. انسلت الريح الى الداخل، فاغلق السيد سانتون الباب في الحال واحكم اقفاله، ثم قال كلمات سريعة للعجوز، دافعاً الفتاة الى الممر، فالى غرفة واسعة يشتعل الموقد في داخلها. جلست الفتاة على كرسي قرب النار وسمعت الرجل يقول لها:

ـ سأحضر الشاي في الحال.

بعد ان جرع الرجل فنجانه دفعة واحدة، استأذن منها وتركها وحدها. حرارة المدفأة وسخونة الشاي في احشائها انعشتا الفتاة بسرعة. فنهضت من مكانها وخلعت معطفها وراحت تتفحص المكان.

الغرفة كبيرة وجدرانها مطلية بالكلس وروافدها ظاهرة. ارضها عارية غير مبلطة. طاولة واسعة تحتل احدى جهاتها، تتسع لأكثر من عشرين شخصاً، محاطة ببنوك خشبية عالية.

دخلت المرأة ووضعت على الطاولة صحنين وشوكتين وسكينتين وملعقتين، فلم تعرف جوسلين ان كانت هي العمة، ام انها خادمة المكان. سألتها بتهذيب:

ـ اين ابنة عمي، يا سيدة؟

بحركة حانقة، بدأت تتكلم المرأة بسرعة ولم تفهم جوسلين منها الا «انهيار عصبي».

عاد جيرفيه سانتون بعد ان خلع سترته. قميصه الكتاني الازرق مفتوح على صدره، مظهراً كتفيه العريضتين. وسرواله الكاكي لا يتعدى الوركين، وشعره الغامق قصير جداً. قالت جوسلين باللغة الانكليزية:

ـ اخشى ان تكون لغتي الفرنسية ضعيفة، يا سيد. هل تتكلم الانكليزية؟

قطب الرجل حاجبيه واجاب بالانكليزية وباشمئزاز واضح:

ـ نعم يا آنسة بيشوب. لكن كاميليا قالت لي بأنك تجيدين الفرنسية.

بارتباك اجابت:

ـ صحيح؟ هذا امر غريب. اين كاميليا، يا سيد. هل باستطاعتي رؤيتها الآن؟

بعد صمت قصير اجاب:

ـ ابنة عمك نائمة. اصيبت اليوم بألم حاد في رأسها واعطتها عمتي حبة منوم. ولن تفيق قبل صباح الغد. والآن، من فضلك ان تجلسي امام المائدة. عمتي احضرت لنا العشاء.

كان الطعام بسيطاً وشهياً، مؤلفاً من شورباء الخضار وعجة البيض بالاعشاب، وجبنة الروكفور والفاكهة والقهوة. خلال العشاء، لم ينطق الرجل بكلمة وكبتت الفتاة رغبتها في طرح الاسئلة العديدة الفضولية. انما اكتفت بالنظر الى صاحب المكان وملاحظة تصرفاته الانيقة. يبدو انه يعيش حياة قاسية، مع ان يديه نظيفتين واظافره مقلمة.

بينما كانا يحتسيان القهوة، تجرأت الفتاة وقالت:

ـ كنت اتوقع ان يكون الطقس حاراً هنا بالنسبة الى انكلترا. هل هذه العواصف تحصل بشكل متكرر، يا سيد.

رفع الرجل كتفيه واجاب:

ـ انها رياح الميسترال، تأتي من الشمال، مروراً بوادي نهر الرون. تعصف منذ ايام عديدة، ولن تستمر طويلاً.

على اثر الحديث عن رياح الميسترال، علقت العمة الجالسة قرب النار، فشرح جرفيه للفتاة ما قالته:

ـ عمتي تقول باننا سنحاول جعل اقامتك ممتعة قدر المستطاع، لكن منطقة الكامارغ لا تلفت السياح اجمالاً. ولا شك ان ابنة عمك اعلمتك بأن الحياة هنا قاسية...

ـ انا ايضاً بنت ريف. من فضلك ان تقول لعمتك انني اتشكرها كثيراً للسماح لي بزيارة ابنة عمي. اعرف بأن العمل لا ينتهي في المزارع، وسأحاول كل جهدي عدم ازعاجكم.

وبينما كان الرجل يترجم لعمته، ظل يرمقها بنظرات غريبة، وبريق ساخر انار عينيه. اخيراً سألها:

ـ هل تركبين الخيل، آنسة بيشوب.

اجابت وعيناها مسمرتان في القهوة:

ـ كلا.

ـ هل تخافين من الأحصنة، مثل ابنة عمك.

ـ كلا. لم اكن اعرف ان كاميليا تخشاها. ربما بسبب وضعها، فهي متوترة الآن اكثر من العادة.

ـ ربما. لكن هنا، منذ الصغر يتعلم المرء ركوب الخيل. يجب على ابنة عمك ان تتعلم ركب الخيل، بعد ولادة الطفل.

اندهشت جوسلين وقالت:

ـ لكنني كنت اعتقد بأنها يسكنان هنا بشكل مؤقت.

ـ هل لمحت لك ابنة عمك بأنها لا ترغب بالعيش هنا.

ـ آه، لا... لم تخبرني اطلاقاً عن مشاريعها المستقبلية. لكنني كنت اظن بأنها سيعيشان في منزل يخصها.

ـ هل تعتقدين بأن على المرأة ان تأخذ القرار بهذا الشأن، يا آنسة بيشوب؟ هنا الرجل صاحب القرار.

ـ في انكلترا، القرارات تتخذ من قبل الزوجين، مشاركة...

تقلصت ملامح جيرفيه وتذكرت جوسلين نصائح والدها. فقال الرجل بلهجة قاطعة:

ـ لكننا لسنا في انكلترا، هنا، يا آنسة. وبما ان ابنة عمك اختارت ان تتزوج من رجل فرنسي، فعليها ان تتعلم قبول تقاليدنا وعاداتنا.

عضت الفتاة على شفتيها، ثم اجابت بتعجرف:

ـ طبعاً. انا اكيدة بأن كاميليا ترغب في التكيف. لم تعرف من قبل الحياة البيتية والعائلية. لكن شقيقك لا يعمل في المزرعة، ومن الأفضل لهما ان يسكنا قرب مركز عمله.

ـ اخي ما زال في سنوات الشباب الأولى. وكشباب جيله، يحب الحركة والتنقل. لكن الريف في دمه، وهذا ما لا يستطيع الأجانب فهمه. قريباً، سيريد ان يستقر هنا نهائياً. ابناء منطقة الكامارغ لا يستطيعون العيش في المدينة اكثر من سنة او سنتين.

شعرت جوسلين بالخوار. كل ما رأته حتى الآن، يؤكد لها بأن ابنة عمها كاميليا لن تعرف طعم السعادة في هذا المكان. حتى الكهرباء، لا وجود لها هنا.

نهض جيرفيه فجأة وقال:

ـ الساعة تجاوزت الثامنة، وهنا، في ماس-سان-تون، ننام باكراً، يا آنسة بيشوب. لا شك انك متعبة من رحلتك الطويلة. عمتي مادلون سترافقك الى غرفتك.

تناولت جوسلين معطفها وشالها وقفازيها وقالت بلهجة باردة ومهذبة:

ـ مساء الخير، يا سيد. شكراً لمجيئك الى المحطة واصطحابي الى هنا.

اجاب بالفرنسية:

ـ تصبحين على خير، يا آنسة.

غرفة جوسلين كالحة واكثر تقشفاً من الغرفة الكبيرة. فيها سرير ضيق، فوقه ناموسية خضراء، وخزانة صغيرة من خشب الصنوبر. ومنضدة زينة وضع عليها ابريق ماء ووعاء فخاري واسع. تحت المنضدة دلو مليء بالماء. المراحيض تقع في الخارج والخروج اليها مغامرة، في هذه الريح العاصفة الباردة.

ـ تصبحين على خير.

ودعت جوسلين العمة، ذات الشعر الرمادي المرفوع كعكة، والثوب الطويل الأسود، التي بدت كأنها حارسة سجن في القرن التاسع عشر.

عندما اغلقت الفتاة الباب قالت لنفسها بأنها لن تفاجأ اذ سمعت المفتاح يدور في القفل.

٢ – ما هذه المزرعة؟ من هؤلاء الناس؟ ولماذا على جوسلين ان تحتمل ظلافة راعيٍ الماشية هذا؟ لولا حمل كاميليا لما حلمت يوماً بالمجيء الى هنا.

منذ ان استيقظت جوسلين من نومها في صباح اليوم التالي، شعرت بتغيير واضح: توقفت رياح الميسترال والهدوء عم المكان.

قفزت من سريرها، وعلى رؤوس اصابعها تقدمت من النافذة، فتحت مصراعيها الخشبيين، فأطلت الشمس بزهوها وملأت الغرفة بأشعتها القوية. الساعة تشير الى السادسة والنصف. صحيح انها افاقت باكراً، لكنها نامت باكراً ايضاً، وامضت ليلة عميقة هادئة في سرير مريح ودافىء.

على الطاولة ابريق يحتوي على ماء المطر العذب. اغتسلت، وفركت اسنانها، ثم افرغت الماء المستعملة في دلو وضع تحت الطاولة. وراحت بعدئذ تفرغ محتوى حقيبتها. علقت الفساتين

والألبسة على حبل مخصص لهذه الغاية، وفي الدرج وضعت كتبها وصورة والدها، فأصبحت الغرفة حميمة. الأحذية والحقيبة وجدت مكانها تحت السرير.

وبينما كانت ترتدي سروالاً وقميصاً متناسقين، سمعت لأول مرة في حياتها غناء العندليب. فتحت الستائر، فانقطعت انفاسها امام المنظر الممتد امامها: سهل واسع، لا نهاية له، تملأه الشمس بأشعتها الصباحية الدافئة. تهيأ لها انها تسكن صحراء واسعة، هي التي اعتادت العيش في منطقة تلالية، محمية بالاشجار والاغصان الشائكة. لم يسبق ان رأت مثل هذا المدى الواسع، اللانهائي. فهذا الافق الصامت، تتخلله احياناً مسافات مائية براقة. ولا شجرة واحدة تكسر رتابة هذه الأرض، اللاحدود لها.

لم تسمع اي صوت عندما خرجت بهدوء من غرفتها. وجدت باب المدخل مفتوحاً، فاستنتجت بأن جيرفيه وعمته لا بد ان يكونا في الاسطبل. فقررت القيام بنزهة صغيرة قبل موعد الفطور، متأكدة بأن كاميليا ما تزال نائمة في هذا الوقت.

اشجار الدلب تظلل ساحة المنزل، والشمس قوية تعمي النظر. بعد عشر دقائق، ندمت الفتاة لأنها لم تجلب معها قبعة تقيها الحر اللاهب نظاراتها السوداوان السميكتان لا تكفيان لحماية عينيها الحساستين من وهج الشمس القوية.

كانت تتبع طريقاً مغبرة، تحدها المستنقعات والمساحات الموحلة حيث تنمو بعض النباتات البرية الخضراء. لا نسيم في الافق، ورائحة الجو مالحة. لا شك اذن ان البحر على مقربة من هنا.

كانت تسير منذ نصف ساعة عندما انعطفت الطريق. على بعد مئة متر، لمحت قطيعاً يرعى. رفعت الحيوانات رأسها باتجاهها، ثم

بدأت تتوجه نحوها.

لم تعرها جوسلين انتباهاً، لأنها معتادة على السير في الحقول المسكونة بالبقر والحيوانات الداجنة. لفتت سمعها اصوات عصافير آتية من حوض قصب، وبينما كانت تسير نحو الحوض، اطلقت احدى الحيوانات خواراً، ضاربة الأرض بحوافرها ارتعبت الفتاة وادركت حينئذ بأن هذه الحيوانات ليست من النوع الوديع، بل ربما تكون ضارية ومؤذية.

لو كانت في انكلترا، لأسرعت في الاختباء وراء حاجز شائك، او لتسلقت احدى الاشجار الوارفة. لكن هنا، في هذا المكان الصحراوي، لا وجود لأي ملجأ. ارتعبت وراحت تنظر حولها بيأس علها تجد منفذاً، والا داستها الحيوانات المفترسة.

بدأ القطيع بكامله يخور وينخر. في تلك اللحظة، وصل فارس على حصانه، في غيمة من الغبار الكثيف، واقترب من الفتاة، حملها بين ذراعيه، وبلمح البصر، وضعها على الحصان امامه، وظل يسير الى الأمام، ممسكاً اياها بزنار سروالها.

بعد مسافة كيلومتر تقريباً، توقف الرجل، هبط عن حصانه وحمل الفتاة واوقفها على الأرض. انه جرفيه سانتون بذاته. لقد انقذها من موت محتوم. فجأة، شعرت بضعف في قدميها كأنها على وشك الاغماء.

ولما رآها الرجل تتأرجح، ابتلع غضبه وامسكها بقوة. وسرعان ما اختفى الدوار من رأسها. دفعت شعرها الى الوراء، اخذت نفساً عميقاً وقالت بتلعثم:

- شكراً، يا سيد. انا آسفة جداً.

بذل الرجل جهداً واضحاً للتغلب على غضبه وقال:

ـ كيف تقولين بأنك بنت جبل، وانت لا تعرفين تمييز البقر من الثيران؟

لم يسبق ان تكلم معها احد بهذه اللهجة المشمئزة، القاسية. احست بالذل واحمر وجهها وقالت مرتجفة:

ـ تصورتها من النوع الداجن. ففي انكلترا غير مسموح لمثل هذه الثيران ان تتنزه بحرية.

اجابها بلهجة قاطعة:

ـ لكن، انت الآن في فرنسا، آنسة بيشوب! لو لم اكن ماراً من هنا صدفة، لمزقتك قرون هذه الثيران وداست بقدميها عليك... ماذا كنت تفعلين هنا، في هذه الساعة؟

ـ كنت اتنزه. ولم اكن انوي ايذاء احد.

ـ مهما يكن، لن اسامح حماقتك. لا اريد ان ينزعج قطيعي بسبب فتاة بلهاء لا تعرف استعمال نظرها وعقلها.

آه، الى هذا الحد؟ لقد اعتذرت منه واعترفت بخطأها، لكنها لن تسمح له ان يعاملها بكراهية واحتقار. فأجابت بقسوة:

ـ صحيح. كيف باستطاعتي، يا سيد سانتون، ان اعرف مسبقاً بأنك سفاح وتسمح لثيران متوحشة ان تتنزه في الريف بحرية مطلقة دون حارس او رقيب.

ـ انها لا تسبب اي خطر اذا لم تتعرض لأي تحريض من احد.

ـ انا لم احرضها!

ـ لا يجب ان يتقدم منها الانسان على قدميه. فهي لا تحب ذلك.

ـ لا تحب ذلك! وانا، هل تعتقد بأنني احببت ذلك. كنت مرتعبة. وفقدت نظارتي... وتمزقت قميصي... وانت تهتم فقط بأحاسيس حيواناتك المتوحشة!

نظر الى قميصها الممزق وقال:

ـ بأمكانك ان تقطبيها.

ثم اضاف وهو يناولها قبعته:

ـ من الأفضل لك ان تعتمري قبعتي.

رمقته بنظرة غاضبة وقالت:

ـ كلا، شكراً.

امرها قائلاً:

ـ ضعيها، يا آنسة بيشوب. عمتي منهمكة بأعمال كثيرة، ويكفي ما تفعله من اجل كاميليا. فليس لديها وقت تضيعه للاهتمام بك ومعالجة معاقة ثانية. ضربات الشمس ليست بأمور ممتعة!

وضع القبعة على رأس الفتاة وراح يجلب حصانه الذي كان يرعى على حافة الطريق. وكان من دون سرج.

ـ هيا، هوب!

امسك الفتاة من خصرها ووضعها على ظهر الحصان، وبقفزة، كان جالساً وراءها. ثم قال:

ـ هيا، يا قيصر! سرّ!

قطع الرجل الطريق من جهة المستنقعات كي يتحاشى الثيران. ولم يبد ان الحصان يتألم من ثقل انسانين يمتطيانه. لكن، بالنسبة الى الفتاة، كانت العودة اصعب تجربة في حياتها: يزعجها قربها من رجل، بالكاد تعرفه، واضطرارها الى الاستناد عليه ولمسه وسمع خفقات قلبه السريعة.

ما ان وصلا الى المزرعة، اسرعت العمة الى الساحة على الفور. ولما لاحظت قميص الفتاة الممزق، رفعت ذراعيها الى السماء وتساءلت عما حدث. طمأنها جيرفيه قائلاً:

- لا شيء... لا شيء.... لا تقلقي، يا عمتي، كل شيء على ما يرام.

ولما سمعت السيدة سانتون ما جرى للفتاة، غضبت، وراحت تنتقد الفتيات الأجنبيات وخاصة الانكليزيات، ثم هزت كتفيها واختفت داخل المنزل.

قال جيرفيه بعد ذهاب العمة:

- لا شك انك مشتاقة لرؤية ابنة عمك. اعتقد بأنها افاقت من النوم. غرفتها تقع مباشرة قرب غرفتك.

اعادت له جوسلين القبعة واجابت:

- شكراً.

ثم اجتازت الساحة وهي مدركة ان نظرات الرجل تتبعها.

بعد ان غيرت ملابسها، وسرحت شعرها، شعرت بهدوء داخلي غريب، لكنها ظلت تلوم تصرف جيرفيه، غير العادل تجاه المغامرة التي حصلت لها، والتي يمكنها ان تحصل لأي انسان آخر يأتي الى هذه المنطقة للمرة الأولى.

طرقت باب الغرفة المجاورة، فسمعت صوتاً ضعيفاً يقول:

- ادخل.

كانت كاميليا ممددة على سرير واسع. النوافذ الخشبية مغلقة والضوء الشحيح يعطي جواً غريباً.

- صباح الخير، يا كاميليا. كيف حالك؟

شعرت الفتاة بصدمة لدى اقترابها من السرير. فعليه، امرأة شاحبة، خداها مجوفان وذراعاها نحيلتان. فتحت المرأة فمها لدى سماع صوت جوسلين وصرخت:

- جوسلين! آه، جوسلين، هذه انت! لا يسعني تصديق ذلك. لو

تعرفين بأي صبر فارغ كنت انتظرك!

انحنت الفتاة لتقبل ابنة عمها، فانهمرت هذه الاخيرة بالبكاء والنحيب، مثل طفلة خائفة. فقالت لها جوسلين وهي تداعبها بنعومة:

- لا تبكي، يا حمقاء...

- انا آسفة. سألت عنك منذ ان استيقظت، فقالت لي السيدة بأنها لا تجدك في اي مكان.

فضلت الفتاة الا تتكلم بالتفصيل، واكتفت بالقول:

- ذهبت في نزهة صباحية. هل تريدين ان افتح النوافذ. الجو معتم وحزين، هنا.

- نعم، افتحيها. يتهيأ لي انني نمت في مغارة. انني اكره هذه الغرفة. شكراً يا الهي، لقد توقفت رياح الميسترال. عصفت لمدة اسبوع بكامله وكدت اجن.

دخلت العمة حاملة صينية الفطور. وضعتها على السرير وخرجت من دون ان تنطق بكلمة. فعلقت كاميليا قائلة:

- يا لهذه المرأة الشرسة! حين يولد الطفل، سأذهب الى مدينة آلرز. كم انا نادمة لمجيئي الى هنا.

ملأت جوسلين فنجاني قهوة وقالت:

- ولماذا غادرت مدينة آلرز.

- ارغموني على ذلك. كنت اشعر بالغثيان والوحام في اشهر حملي الأولى، كما سقطت ذات يوم واصبحت مهددة بخسارة الجنين. ربما كان ذلك افضل كنا سعيدين جداً قبل ان احمل. لكن، منذ بداية حملي، كل شيء يسير خطأ. انهم يكرهونني، وانا اكرههم. و... آه، لا نهاية لذلك...

وضعت جوسلين زبدة فوق قطعة خبز ساخنة وناولتها لابنة عمها، فرفضتها قائلة:

ـ كلا، شكراً. اشعر بسوء الهضم. لا آكل كثيراً، فالطعام لا يطاق... رائحة الثوم تفوح في كل الوجبات.

ـ اين جان-مارك؟

تنهدت كاميليا واجابت:

ـ لقد ذهب طيلة الاسبوع. انه يعمل في مؤسسة تنتج الآلات الزراعية وهو مسؤول حالياً عن عرضها في معرض ليون الدولي. كيف كان استقبال جيرفيه لك؟ انا لا اراه ابداً تقريباً. يتكلم معي احياناً عبر النافذة.

ـ لم يكن مرحباً كما يجب. يتهيأ لي انه يعشق ثيرانه ويكرس لها حياته كلها.

ـ آه، في منطقة الكامارغ، الجميع مجانين بالثيران. ولهذا السبب جيرفيه وعمته لم يعجبهما زواجنا. كانا يعتقدان بأن جان-مارك بعد اسفاره العديدة، سيعود الى الضيعة ويستقر فيها ويتزوج واحدة من سكانها. بالنسبة اليهم، حتى ولو تزوج فتاة من مرسيليا، فستكون اجنبية. وجميع سكان الكامارغ يفكرون التفكير اياه. ويقول عنهم الفرنسيون عامة بأنهم شعب منغلق على نفسه.

ـ لماذا قلت لهم بأنني اتكلم الفرنسية؟

ـ آه، لم يريدا ان تأتي... قال لي جيرفيه بأن لا وقت لديه ان يهتم بك ويترجم لك. فقلت له ان باستطاعتك الاتكال على نفسك في تدبير امرك. فلا ضرورة ان تبقي سجينة هذا المكان لمدة ثلاثة اسابيع. اذا اعاروك سيارة الجيب، بامكانك زيارة القرى والمدن المجاورة.

لم تقل الفتاة انها لا تستطيع قيادة الجيب، خاصة في هذه المنطقة المجهولة، انما سألتها:

ـ وكيف جرى ان جيرفيه يتكلم الانكليزية؟

ـ هو ايضاً سافر... من زمان... لما توفي زوج عمته، عاد ليدير المزرعة. جان-مارك وهو مختلفان كلياً. زوجي لا يريد البقاء في المزرعة، بينما يصر اخوه على ذلك. انه تقليد عائلي لا مفر منه.

ـ وماذا يريدونه ان يكون؟

ـ حارس القطيع... كاوبوي بمعنى آخر. جيرفيه مالك القطيع وجان - مارك حارسه. هل تدركين الآن اي نوع من الحياة نعيش. الصيف ليس ممتعاً، والشتاء صحراء حقيقية. ولا شك انك رأيت المطبخ والمراحيض والحالة البدائية التي نعيش فيها!

ـ حتى الصالون ليس مريحاً. آه، لقد نسيت، لقد جلبت لك هدية. سأذهب واجلبها في الحال.

عادت الفتاة حاملة علبة صغيرة وقالت:

ـ ما زلت اتذكر بأنك تستعملين مساحيق ريفلون للتجميل. اشتريت لك آخر منتوجاتها مدركة بأن لا وجود لها هنا.

ـ طبعاً لا. ناوليني المرآة، من فضلك. اريد ان اجرب حمرة الشفاه هذه.

نظرت الفتاة الى ابنة عمتها تلون فمها الجميل بتأن. لقد اختارت لها هذا اللون العنبري لأنه يناسب عينيها الخضراوين وشعرها الكستنائي الفاتح. لكن شعرها اليوم اصبح باهتاً، وهذه الحمرة تظهر ملامحها المشدودة والتجاويف السوداء تحت عينيها. لا احد يمكنه معرفتها، هي التي كانت تلك الفتاة الحيوية، النشطة، صورها تظهر دائماً في مجلات الموضة النسائية.

مضت فترة الصباح بسرعة. وكان الحديث شيقاً، بعد فراق دام حوالى السنتين. وقبل موعد الغداء بقليل، اطل جيرفيه من النافذة وقال:

- صباح الخير، يا كاميليا. كيف حالك اليوم؟

كانت قميصه مليئة بالوحل ووجهه ملطخاً بالغبار والعرق، وقبعته مدفوعة الى الوراء. انتفضت زوجة اخيه وقالت:

- آه، يا جيرفيه... فاجأتني!

قبل ثوان قليلة كانت مسترخية والابتسامة تتلألأ على شفتيها، والآن، وجهها الشاحب اصبح حذراً ومتخوفاً. اجاب جيرفيه شارحاً:

- انا آسف، لم اكن انوي مفاجأتك. جئت اطلب من الآنسة بيشوب اذا كانت لا تجد مانعاً من تناول الغداء معنا. هكذا لن تحضر عمتي الا صينية واحدة، صينيتك طبعاً.

سألت جوسلين الرجل:

- هل حان وقت الغداء، يا سيد سانتون؟

- كلا، علينا ان نغتسل الآن. انزلي بعد عشر دقائق وسأعرفك بالآخرين.

سألت الفتاة ابنة عمها:

- سيعرفني الى من؟

- رجاله. انهم حوالى الدزينة. معظمهم ينامون في الملحقات ويتناولون وجبات الطعام هنا. ليس من سبب كي تتناولي طعامك معهم. انهم رجال مكبوتون.

- لا يهمني هذا الأمر. لا اريد ان افرض على العمة عملاً اضافياً. لا شك انها تمضي وقتها في المطبخ لتطعم هذه الأفواه العديدة. هل

تهتم بالمنزل وحدها.

- طبعاً. انها تتمتع بقوة الحصان. بالنسبة اليها، هذا هو دور المرأة. فبأمكانها بسهولة ان تحضر صينيتين.

- لا يهم. حين ينتهي الغداء، اعود اليك.

كانت تجربة مزعجة للفتاة ان تدخل غرفة مليئة بالفرنسيين يسلطون عليها عيونهم الغامقة. وشعرت بارتياح عندما تقدم جيرفيه منها وعرفها الى جماعته، قبل ان يدلها على الكرسي الموضوعة خصيصاً لها، في طرف الطاولة.

- لكن، اليس هذا مكانك؟

- افضل لك ان تجلسي على الكرسي بدل البنك. واسمحي لي ان اعرفك الى رئيس الحراس مارسيل روجيه، هنالك... الآنسة بيشوب.

ابتسمت الفتاة وهمست تقول:

- انا سعيدة للتعرف اليك، يا سيد.

جلست على الكرسي، وتبعها الجميع.

بدأت السيدة سانتون تقدم يخنة الخضار بالخروف من قدر فخارية واسعة، وتنقلت الصحون من يد الى اخرى.

وباستثناء جيرفيه، الجميع يرتدون قبعاتهم، يأكلون ويشربون بشهية انهم عمال نهضوا من نومهم منذ الفجر. وتساءلت جوسلين ان كان وجودها يجعلهم صامتين، ام انهم هكذا عادة. كانت تشعر بالانزعاج، عيناها محدقتان بصحنها، كأنها دخيلة او جاسوسة.

وحسب تقاليد البلد، مسحت صحنها بقطعة خبز. في تلك الاثناء، احد الحراس اطلق زفرة استغراب واخرج من جيبه زوج نظارات شمسية وقال:

- هاتان النظارتان للفتاة يا معلم جيرفيه!

سأل جيرفيه الفتاة:

- هل هذا صحيح؟

هزت رأسها موافقة، فناولها حارس شاب اياهما وقالت له:

- شكراً، يا سيد.

شرع جيرفيه يخبر رجاله كيف اضاعت الفتاة نظارتيها، فشعرت بالازعاج حتى الاعماق.

ولما علم الرجال بأنها اعتبرت الثيران المتوحشة السوداء قطيعاً من البقر الداجن، راحوا يقهقهون بصوت مرتفع، هازئين وساخرين. في مواقف اخرى، كانت شاركتهم جوسلين الضحك، لكنها ادركت ان جيرفيه يحاول الهزء منها عن سابق قصد. فاستطاعت كبت انزعاجها وابتسمت بخجل وظلت تحدق في القرويين، ويداها مشدودتان ووجهها احمر. لم يزعجها تصرفهم العفوي، لكن قلبها انجرح من نظرات جيرفيه الهازئة. لم يخطىء حدسها، عندما لاحظت عدائية جيرفيه تجاهها منذ البداية. فكاميليا اذن على حق: آل سانتون لا يحبون الأجانب.

خلال الأيام الاربعة الأولى، لم تغادر الفتاة غرفة كاميليا، الا عندما تتناول وجبات الطعام مع العمال. لو كانت في انكلترا لمدت يد المساعدة الى العمة في توضيب مائدة الطعام وغسل الصحون، لكن لا شك ان العجوز تعتبر ذلك تحدياً، ولرفضت مساعدتها بوقاحة.

بدأت صحة كاميليا تتحسن بوجود ابنة عمها، واستعادت شهيتها على الطعام، وكذلك نشاطها وعافيتها. غير ان جوسلين ما زالت قلقة عليها. فهذا المنزل المنعزل، الخالي من جميع وسائل

الراحة، من كهرباء وماء ساخنة... هذا المنزل البدائي لا يناسب امرأة ستضع طفلها عما قريب. لكنها لم تخبر كاميليا بقلقها، بعدما قررت فتح هذا الموضوع مع جان - مارك لدى عودته من ليون.

ونهار الجمعة، بعد الغداء، قررت كاميليا ان تنام في فترة القيلولة. فشعرت جوسلين بحاجة الى المشي. الطقس جيد ولا ترغب في قضاء وقتها بين اربعة جدران.

وما ان اصبحت جوسلين خارج عتبة المنزل، حتى سمعت اصواتاً وصهيل خيول. بفضول ذهبت نحو المستودع فرأت عمالاً واولاداً، جالسين على الحواجز. اقتربت قليلاً ولمحت في احد العنابر صاحب الدار مع احد حراسه، يضعان الرسن على حصان صغير.

بعد قليل انسحب الحارس، فامتطى جيرفيه المهر. وفي الحال، جنّ الحيوان، رفع اذنيه الى الوراء وابيضت عيناه، ثم قفز محدثاً ضجة رهيبة ارعبت الفتاة كثيراً. لم يسبق ان رأت مثل هذا المنظر من قبل. هل هذا ما يسمونه ترويض الحصان؟ كيف بامكان فارسه ان يظل على ظهر لا يتوقف ثانية عن الهيجان والوثوب. لكن جرفيه ظل يتبع حركات الحصان. الغبار يرتفع، الأولاد يصفقون والعمال يطلقون اصواتاً مشجعة للفارس الماهر.

دامت المبارزة خمس دقائق، خلالها كانت الفتاة تشعر بالاعجاب لصبر ومكابدة اهل هذا البلد.

ولما بدا على الحيوان التعب، انحرف جانباً، فعلت اصوات التحذير من قبل الحضور، وما كاد يرتمي الحيوان على ظهره، رافعاً حوافره الاربعة في الهواء، حتى سحب جيرفيه رجليه وابتعد. لو تأخر نصف ثانية لتحطمت ساقه. انبطح الرجل على الارض المغبرة، ثم نهض، غير مصاب بأذى.

نفض الرجل الغبار عن ملابسه وتبادل كلمات المديح والنكات مع عماله، ثم تقدم من الحيوان وراح يداعب عنقه.

وبينما كان الحراس يضعون الرسن على حصان آخر، لمح جيرفيه الفتاة، فقفز فوق الحاجز واقترب منها وسألها:

ـ هل ترغبين في رؤيتي، آنسة بيشوب. هل هناك مشاكل.

ـ كاميليا تنام، وانا سمعت ضجة، فجئت ارى ماذا يحصل. هل يزعجك ان بقيت اشاهد من هنا.

ـ لا، ابداً.

كان يقف امامها، يداه على وركيه وقبعته منحرفة الى الوراء، يلهث بشدة. ابتسم وقال:

ـ ابنة عمك لا تحب هذه المشاهد. واقنعت اخي بعدم مساعدتي.

سألته جوسلين باهتمام وتهذيب:

ـ كم من الوقت يحتاج الحصان للترويض؟

ـ نحن هنا نعلّم الحصان ان يفعل ما نطلبه منه. ولا يمكن لأحد في هذا الكون ان يروض حصاناً يولد وينمو في منطقة الكامارغ.

ـ حتى انت، لا تستطيع ترويض الحصان، يا سيد سانتون؟

ـ لم احاول ذلك ابداً، آنسة بيشوب. انني اعرف تماماً قيمة حريتي. والآن، ارجوك معذرتي.

ابتعد الرجل وقفز فوق الحاجز.

في هذا المساء، وفي الوقت الذي كانت الفتاة تستعد فيه للنهوض عن مائدة العشاء، قال لها جيرفيه:

ـ سأذهب في الغد الى مدينة آلرز، آنسة بيشوب. هل بامكانك ان تسألي ابنة عمك اذا ما كانت تحتاج لشيء اشتريه لها. سأغادر في الصباح الباكر... قبل نهوضها من النوم.

ـ سأذهب في الحال، يا سيد.

فرحت كاميليا بهذا الخبر وقالت لأبنة عمها:

ـ آه، نعم. هناك اشياء كثيرة انا بحاجة ماسة اليها.

تناولت المرأة مفكرتها الجلدية الزرقاء المطعمة بأحرف اسمها، والمبطنة بالحرير المموج، ثم سحبت من طرفها قلم حبر ذهبي، وراحت تدون عليها ما يلي:

ـ صابون ... قطن... سكاير انكليزية... هذا لا يعجب جيرفيه، فهو لا يحب النساء اللواتي يدخنن.

ـ بنظري، يجب ان تحاولي الاقلاع عن التدخين. فهذا مضر بصحة الجنين.

ـ آه، انت ايضاً، بدأت تنهالين علي بالنصائح. يكفيني النصائح الصادرة من جيرفيه وعمته. اسمعي، لماذا لا تذهبين معه وتقومي عنه بشراء هذه الاغراض. هكذا توفرين عليه وقتاً وستتاح لك فرصة زيارة الآثار والمتاحف هناك. لقد امضيت هنا اسبوعاً مملاً، حابسة نفسك في هذه الغرفة معي.

ذكرتها جوسلين قائلة:

ـ جئت الى هنا لأبقى بجانبك. لكن، ربما من الأفضل ان اقوم بهذه المشتريات بنفسي، اذا كان السيد سانتون لا يرى في ذلك مانعاً.

استقبل جيرفيه الخبر بقلة حماس، لكن بعد تفكير وتحليل، اعلن قائلاً:

ـ حسناً، آنسة بيشوب. سنغادر في الثامنة صباحاً.

وفي صباح اليوم التالي، ارتدت جوسلين فستاناً قطنياً معرقاً، ورأت جيرفيه على مائدة الفطور عندما دخلت غرفة الجلوس. نهض

وتأمل فستانها وحذاءها ولم تعرف اذا اعجبه منظرها ام لا. اما هو، فكان يرتدي قميصاً زرقاء وسروالاً ضيقاً، كاكي اللون. وانتعل فوق جزمته الجلدية غطاء من الكاوتشوك الواق.

وما ان انتهت من تناول الفطور حتى صعدت في سيارة الجيب. نظرت اليهما العمة وهما راحلان دون ان ترد على ابتسامة الفتاة ووداعها.

ران الصمت في الدقائق العشر الأولى، قطعه جيرفيه اخيراً عندما سألها فجأة:

- اخبريني يا آنسة بيشوب، ما هي مهنتك؟ هل انت عارضة ازياء مثل ابنة عمك؟

- لا، شكراً يا الهي! لماذا اخذت هذه الفكرة عني؟

- عمتي تساءلت الشيء نفسه. فكاميليا لم تخبرنا بشيء.

بصوت عال اجابت:

- انا مدبرة منزل.

- تقصدين ربة منزل.

- نعم. اهتم بوالدي. انه طبيب.

- فهمت. اذن كيف استطعت المجيء الى فرنسا هل لديك خدام يحلون مكانك؟

- تزوج ابي من جديد، ولولا ذلك لما استطعت المجيء.

- وهل ستستمرين في ادارة المنزل.

- آه، لا. هذا دور زوجته الآن. سأبحث عن عمل، لكنني لا اعرف نوعيته. لا استطيع ان اعمل شيئاً خارج ادارة المنزل.

- ابنة عمك لا تعرف شيئاً في هذا المجال.

- هذه حال معظم الفتيات، في ايامنا هذه. يتعلمون ادارة المنزل

في حينه. وكاميليا ستتعلم ذلك بسرعة متى اسست لعائلتها منزلاً. سيكون ذلك صعباً عليها، كونها فتاة اجنبية. الفتاة الفرنسية تعاني المشاكل اياها اذا تزوجت من رجل انكليزي.

- نساؤنا لديهن غريزة طبيعية لهذا النوع من الأعمال.

آه، انه يتكلم عن النساء كما في القرن التاسع عشر!

لم يتسن لها الوقت لايجاد رد مناسب، لأنها رأت فجأة رف عصافير يرتفع فوق المستنقع الممتد على طول الطريق، ويحلق في السماء الزرقاء مثل غيمة وردية. لم يسبق ان رأت بجمال هذا المنظر وسحره المفاجيء. فقبل لحظة كان الجبل صحراوياً...

- آه، هذا رائع جداً. ما هذا النوع من العصافير؟

كبح الرجل فرامل سيارته واوقفها جانباً واجاب:

- انها طيور طويلة الساق والعنق، كما ترين وتدعى النحاميات. نحن هنا نسميها «الزهور الطائرة».

نزلت جوسلين من السيارة لتتأمل منظر هذه العصافير الجميلة، ثم قالت باستغراب:

- عصفور النحام في فرنسا؟ كنت اعتقد بأنها موجودة فقط في المناطق الاستوائية. انظر ان عددها يتجاوز الألف.

- لا يوجد مثل هذه العصافير، هنا في فرنسا، الا في منطقتنا، في الكامارغ. هل تهتمين بالعصافير، آنسة بيشوب.

- كلا، ليس تماماً. انها عصافير غريبة. والعندليب عصفور غريب ايضاً. ووجوده كثير هنا، كالشحرور في انكلترا. هل زرت بلادي، يا سيد سانتون. اخبرتني كاميليا بأنك سافرت كثيراً.

اجاب باختصار وهو يقلع:

- لقد مررت بلندن.

ـ تتكلم الانكليزية بطلاقة.

نظر اليها ساخراً وقال:

ـ تعلمت اللغة الانكليزية في ليون، خلال دراستي الجامعية. هل هذا يدهشك يا آنسة بيشوب؟

ـ لماذا؟ لا سبب كي اندهش.

كان ينظر الى الطريق، فلمحت الفتاة تقلص فمه في ابتسامة متعجرفة ثم قال بجفاف:

ـ تفعلين قدر مستطاعك كي تخفي عني نظرتك بي. لكنني اعرفها. انت تعتبرينني انساناً غليظاً، اليس كذلك؟

لم تتوقع الفتاة ذلك منه، لكنها اجابت بحذر:

ـ بالكاد اعرفك، يا سيد. لكنني لست ساذجة لأصدق كل ما يقال عن الفرنسيين بأنهم جميعاً لطفاء ومحبين.

كبح فرامله فجأة ليتحاشى السقوط في حفرة عميقة، فاضطرت الفتاة التمسك في مقعدها كي لا ترتطم بنوافذ السيارة الأمامية. فقال لها:

ـ عفواً، آنسة بيشوب. طرقاتنا رجراجة. آمل الا تكوني منزعجة من الرجة.

احمر وجهها وظلت صامتة. لكنها كانت مضطربة منذ ان بدأت فهم التأثير الذي يفعله بالنساء عامة، متى اراد ذلك. عم الصمت بقية الطريق. اخيراً وصلا الى مدينة آلرز. اوقف جيرفيه سيارته امام مقهى في جادة الامراء وسألها:

ـ هل تحبين احتساء مرطب منعش؟

هزت رأسها موافقة وتبعته الى داخل المقهى. احتسيا الليموناضة المثلجة بسرعة، ثم دفع الرجل فاتورة الحساب، ونهض قائلاً:

ـ هل باستطاعتك تدبير امرك وحدك.

ـ لغتي الفرنسية تكفي لأن اقوم بالشراءات من دون صعوبة.

ـ في هذه الحال، موعدنا هنا عند الظهر. الى اللقاء يا آنسة.

رأته يبتعد، من طريقة مشيته، يفهم الآخرون انه واثق من نفسه، كأنه يملك المدينة كلها. لم تستطع منع نفسها من التساؤل، لماذا هذا الرجل، الذي سافر وقام بدراسات جامعية، اختار ان يكون صاحب ماشية. في غضون ساعة انهت الفتاة مشترياتها، وضعتها في سلة داخل المقهى، ثم راحت تجوب المدينة كسائحة. الجادة الكبيرة التي يحدها شجر الصفصاف هادئة تماماً. الكنائس القديمة المهدمة والمقابر الضخمة ذكرت الفتاة بالرومان وثويهم الفضفاضي الذي يتمايل مع خطواتهم الايقاعية، في حركة وضجيج العربات. اغمضت جوسلين عينيها برهة، فتهيأ لها انها تعيش في عالم العصور القديمة.

وصلت اخيراً الى قلب المدينة، الشوارع تكتظ بحركة مستمرة. انه يوم السبت، يوم المزارعين الذين يأتون الى المدينة لعقد صفقات اعمالهم.

وجدت المقهى مليئاً، لكن خلال ثوان معدودة اخلت احدى العائلات طاولة فشعرت جوسلين بارتياح وجلست امام تلك الطاولة تحتسي شراب الليموناضة. امامها نصف ساعة قبل عودة جيرفيه.

لم يعد وحده. بل مع فتاة شابة، سمراء، قصيرة، ترافقه متأبطة ذراعه باسترخاء.

ـ الآنسة بيشوب... الآنسة دورانس. الآنسة بيشوب ابنة عم كاميليا، يا سيلين. تمضي بضعة ايام عندنا في المزرعة.

نهضت جوسلين ومدت يدها تسلم على الفتاة الفرنسية، قائلة:

- تشرفت بمعرفتك. كيف الحال؟

ابتسمت سيلين مظهرة عن اسنان ناصعة جميلة. طلاء اظافرها يشبه لون حمرة شفتيها. ترتدي قميصاً ورديا وتنورة مكسرة كحلية. خصرها نحيف ورأسها بالكاد يصل الى كتف جيرفيه. قال هذا الأخير شارحاً:

- دعيت سيلين لتناول طعام الغداء معنا.

خرج الجميع الى شرفة المقهى بعدما اخلى لهم الخادم طاولة واسعة مطلة. وبعد قليل، سألت سيلين جوسلين.:

- هل هذه رحلتك الأولى الى فرنسا يا آنسة بيشوب؟

- نعم.

احتارت جوسلين. الشوارع مليئة بالفتيات الجميلات، لكن سيلين مختلفة عنهن. حقيبة يدها البسيطة وحذاؤ ها الفاخر، وعطرها الناعم، وملابسها الانيقة، كل ذلك يشير الى انها فتاة باريسية. ماذا تفعل هنا في آلرز... مع رجل مثل جيرفيه سانتون؟

خلعت الفتاة الفرنسية نظارتيها وقالت:

- كيف حال ابنة عمك.التقيت بها مرة واحدة عندما كانت تسكن مع جان - مارك في شقتهما، شارع غانبيتا. هل ما تزال في صحة سيئة؟

- انها تتحسن قليلاً. هل تسكنين في مدينة آلرز ، يا آنسة؟

- لدينا منزل في المدينة حيث امضي اشهر الشتاء. لكن، في الربيع، اعود الى مزرعة والدي. انه صاحب ماشية، مثل جيرفيه. ومزرعتنا ليست بعيدة عن مزرعة سانتون، انما ماشيتنا اسبانية، بينما ماشية جيرفيه مؤلفة فقط من الثيران الاصلية التابعة لمنطقة الكامارغ، اليس كذلك، يا عزيزي؟

جاء الخادم، وبينما كان جيرفيه يختار الطعام مع سيلين، من دون استشارة جوسلين، تساءلت هذه الأخيرة اذا التقى سيلين صدفة، ام كان على موعد مسبق معها.

اخرجت سيلين من حقيبة يدها علبة سكائر وقالت:

- هل تدخنين يا آنسة بيشوب؟ كلا؟

تناولت الفتاة الفرنسية سيكارة، وقبل ان تضعها في فمها، وضع جيرفيه يده على معصمها وهز رأسه وقال:

- ليس الآن... انتظري نهاية الغداء.

- آه، انت مزعج مثل والدي...

احضر الخادم المقبلات المؤلفة من الزيتون الأسود والخيار والفطر والطماطم والبيض المسلوق.فجأة، قال جيرفيه:

- هل تمكنت من القيام بجميع الشراءات يا آنسة بيشوب؟

- نعم، شكراً. وقمت ايضاً بتجوال حول المدينة. الطقس منعش، تحت اشجار الحور والصفصاف.

قالت سيلين:

- لا شك انك تجدين مناخنا حاراً. انا احب هذا الطقس. فرحي الوحيد، ان اكون طول النهار تحت الشمس... ان امتطي حصاني واجوب مسافة طويلة دون ان التقي احداً... آه، هذا ما افضله اكثر من اي شيء آخر.

قال جيرفيه بجفاف:

- ما دام الحال هكذا، لا افهم لماذا تمضين اوقاتاً عديدة في باريس؟

ضحكت وقالت:

- واحب باريس ايضاً. اذهب اليها لاختيار ملابسي. الا تحب ان

ابدو جميلة يا حبيبي.

- انت جميلة بطبيعتك.

- صحيح.

- طبعاً. هيا، اكملي طعامك، يا عصفورتي.

ذهلت جوسلين ولم تصدق ما سمعته، خاصة ما صدر عن جيرفيه سانتون. لا شك ان علاقة الرجل بالفتاة الفرنسية قديمة. لكن هل هي علاقة اخوة ام علاقة حب جدية؟

احضر الخادم الوجبة الاساسية المكونة من فخذ غنم محمر بالفرن، والى جانبه البازلاء والبطاطا.

وبين الحر والطعام الشهي، بدأ النعاس يتغلب على جوسلين، بينما بقيت سيلين في حيويتها ونشاطها. تتكلم باستمرار مع جيرفيه، وتبتسم، من حين الى آخر الى الفتاة الانكليزية التي، ظاهرياً، لا يبدو انها تشارك الرجل كرهه وعدائيته للأجانب.

بعد القهوة، اشار جيرفيه للخادم ان يحضر الفاتورة، فاقترحت الفتاة الفرنسية قائلة:

- لماذا لا تمر بنا في المساء، يا جيرفيه. لم يرك والدي منذ شهر تقريباً. ربما تحب الآنسة بيشوب ان تأتي معك.

قالت جوسلين بتهذيب:

- هذا لطف منك، يا آنسة، لكنني افضل البقاء مع كاميليا، خاصة انها امضت هذا اليوم وحدها.

- آه، نعم، لم افكر بذلك... جان - مارك في ليون، اليس كذلك لكن انت، يا جيرفيه، هل ستأتي؟

- كلا، ليس هذا المساء، يا سيلين.

بدت الخيبة على وجه الفتاة الفرنسية، لكنها لم تصر، بل اكتفت

بالقول:

- اذن، ربما آتي لرؤيتك في الغد. لم ار العمة ملالون من زمان.

- اهلاً وسهلاً بك دائماً، يا صغيرتي.

امام المقهى، ودعتها سيلين، وبصمت توجه جيرفيه وجوسلين نحو سيارة الجيب التي انطلقت عائدة الى المزرعة. في منتصف الطريق اوقف جيرفيه سيارته ليتحدث مع سائق سيارة جيب اخرى، آتية بالاتجاه المعاكس. ثم عاد واقلع من جديد. بعد قليل، قال بهدوء:

- الرجل الذي تحدثت معه منذ قليل، هو الطبيب الذي ذهب لرؤية ابنة عمك، كالمعتاد.

قالت الفتاة باندهاش:

- ولماذا لم تقل لي ذلك من قبل. كنت ارغب في ان اكلمه انا ايضاً. آه، كان يجب عليك ان تقدمني اليه.

- ولماذا؟ انه لا يتكلم الانكليزية، وحال ابنة عمك مطمئنة.

قطب حاجبيه، ثم هز كتفيه وقال شارحاً:

- عامة، يأتي عندما يكون اخي هنا. طبعاً، لو كنت اعرف اصرارك على رؤيته لعرفتك به. لكن، لا حاجة للقلق الآن. انه طبيب جيد وله خبرة واسعة في مجال تطبيب النساء الحوامل.

- هل هو موافق على ان تسكن المزرعة؟

- هل هذا يعني بأنك تمانعين ذلك؟

عضت الفتاة على شفتيها وقالت:

- كنت افضل لو تذهب الى المستشفى. ماذا لو اصيبت باشتراكات...

قاطعها الرجل قائلاً:

ـ ولماذا سيحدث لها اشتراكات؟ انها شابة وبصحة جيدة ويراقبها الطبيب باستمرار. ويعتقد بأن ولادتها ستكون طبيعية.

احتجت الفتاة وقالت:

ـ لكنها نحيلة وواهنة.

ـ اذا كانت ترفض الأكل، فماذا باستطاعتنا ان نفعل. ان نجبرها؟

ـ انها غير معتادة على المطبخ الفرنسي... الثوم... الزيت...

ـ وانت مثلها يا آنسة بيشوب. لكن يبدو انك تأكلين طعامنا ولا تعاندين الا اذا كنت تتصنعين ذلك.

ـ كلا. ارى طعامكم رائعاً. لكن، لا تنسى ان كاميليا امرأة حامل و...

قاطعها قائلاً:

ـ ابنة عمك ترفض التكيف. وهذه هي مشكلتها الأساسية. لن تساعديها اذا شجعتها في هذا التصرف. يكفي ان اخي متساهل معها كثيراً.

اجابت الفتاة ببرود:

ـ لأنه يحبها، ربما. معظم الرجال يدللون نساءهم عندما ينتظرن مولوداً سعيداً. لكن، ما دمت انت غير متزوج، فلا تستطيع فهم ذلك.

ـ لا يحتاج الرجل ان يكون متزوجاً كي يفهم النساء. ابنة عمك بحاجة الى بعض القسوة. النساء كالفرس، يطلبن الصلابة والحزم.

ـ صحيح لا عجب ان تكون عازباً في سنك، يا سيد سانتون.

ـ انت لا توافقيني الرأي تفضلين الأزواج اللينين؟

ـ نظرتي الى الزواج تختلف كلياً عن نظرتك، على ما يبدو. كما لن

اتزوج رجلاً لا يرى بأنني على درجة معينة من الذكاء.

ـ صحيح بأن النساء كائنات غريزيات، لكن هذا لا يعني بأنهن غير ذكيات. انت ما زلت صغيرة، يا آنسة، وربما لا تعرفين بعد نوعية مزاجك وشخصيتك الكاملة. عندما تكونين لنفسك خبرة اكبر، ستفهمين بأن النساء خلقن للطاعة، ولا يمكن للطبيعة ان تتغير.

احتجت ببرود قائلة:

ـ الأيام تتغير. انت رجل تقليدي، اليس كذلك؟

ظهرت المزرعة من بعيد، جدرانها البيضاء تلمع تحت الشمس.

ـ هذا ممكن، لكن هذا لا يغير طبيعة العلاقة الموجودة بين الرجل والمرأة. الا تجدين ان ابنة عمك تأخرت في الندم على زواجها.

ـ لكنها ليست نادمة على شيء. انها تحب اخاك كثيراً. ومهما يكن، كيف باستطاعتك ان تطلب منها ان تكون سعيدة، بينما انت والعمة لا تظهران نحوها محبة معينة، ولا اي حظ للتكيف الصحي.

ـ هل تتهمينني وتتهمين عمتي بعدم التلاطف مع ابنة عمك؟

قالت الفتاة لنفسها: مهما فعلت وقلت، لن اتوصل الى جعله فهم شيء مما اريد. فقالت معتذرة:

ـ كلا، طبعاً، يا سيد. ليس هذا ما اقصده. لكن بامكانكما ان تكونا متسامحين معها اكثر. كاميليا فتاة شديدة الحساسية، تعرف بأنكما لا تحبانها، وهذا يجعلها فتاة تعيسة. اخوك ايضاً ليس في وضع سهل. لكن لا جدوى في معارضة زواجهما. ربما من الأفضل لو تقف الى جانب اخيك وتساعد كاميليا على التكيف.

اوقف جيرفيه سيارة الجيب. خلع قفازيه ورماهما الى الوراء، ثم التفت نحو الفتاة وقال:

- مساعدتها؟ بأي طريقة؟

- آه، بطرق عديدة.

كانت الفتاة تعي بأن فستانها يجعلك ووجهها عابق من شدة الحر، لكن نظرات جيرفيه المحدقة بها، ودنو يده السمراء من كتفها، وتّرتاها، فشعرت بالتقلص فجأة. ماذا لو لمسها من دون وعي. كانت تخاف. انه مختلف عن بقية الرجال، لكنها لا تعرف لماذا تشعر بذلك. سألها:

- مثلاً؟

- بتشجيع الآنسة دورانس ان تأتي لزيارتها، مثلاً. كاميليا بحاجة الى صديقات، ويبدو انهما تتبادلان الاهتمامات نفسها.

- طبعاً، هذا اقتراح مليء بالوحي!

اضطربت جوسلين لتعبير وجهه الهازىء وقالت:

- لا افهم.

- هناك اشياء كثيرة لا تفهمينها. انت هنا منذ اسبوع ودعيني اقدم لك نصيحة، يا آنسة. عليك بالترفيه عن ابنة عمك. قريباً، ستلد، وسيملأ الطفل اوقات فراغها.

احمرت جوسلين وقالت مدافعة:

- كنت اريد فقط مساعدتها.

- انا اكيد من ذلك. ومعك حق ان تعتقدي ان سيلين وكاميليا تتبادلان الاهتمام نفسه. لأن سيلين كانت الفتاة التي كان اخي سيتزوج منها، لو لم يذهب الى باريس العام الفائت.

٣ - اكتشفت جوسلين ان كاميليا ليست ضحية مسكينة كما تحاول كاميليا ان تظهر وقررت الرحيل في الوقت المناسب لتجنب ظلافة جيرفيه، لكن العمة سقطت وعليها ان تقبل التحدي وتبقى او ترحل فتخسر تحديها...

استقبلت كاميليا ابنة عمها عندما دخلت غرفتها بمزاج سيء قائلة:

- انتظرك منذ ساعتين!

- انا آسفة. لم اعرف مسبقاً بان جيرفيه ينوي تناول الغداء في آلرز. لقد جلبت لك كل ما طلبته.

افرغت الفتاة محتوى السلة على السرير راغبة في غسل وجهها ويديها وتغيير ملابسها، ثم قالت للمرأة الجالسة امام منضدة الزينة، قرب النافذة:

- جاء الطبيب لرؤيتك، اليس كذلك؟ لقد التقينا به في طريق العودة.

ـ انه لرجل حقير ومقيت... كانت رائحته تفوح بالثوم. اسمعي، سأغسل شعري قبل عودة جان - مارك، غداً. وستساعدينني في ذلك يا جوسلين. لم يعد باستطاعتي غسله وحدي. اجلبي ماء ساخنة من عند العمة.

ـ اليس من الأفضل ان تغسليه غداً صباحاً؟ سيأخذ وقتاً طويلاً قبل ان يجف، يا كاميليا.

لكن كاميليا اجابت باصرار عنيد:

ـ كلا، كلا... اريد ان اغسله الآن، في حال وصل زوجي باكراً.

ـ حسناً. سأذهب واغير ملابسي.

في غرفتها جلست جوسلين على السرير في استراحة قصيرة، فالطريق الرجراجة والجدال مع جيرفيه احبطا عزيمتها. لكن عليها ان تساعد كاميليا في غسل شعرها كي يجف قبل الليل. خلعت ملابسها وبذلت جهداً كبيراً لتقاوم رغبتها في التمدد على السرير والنوم.

بعدما غسلت وجهها وذراعيها، وارتدت قميصاً وسروالاً نظيفين، شعرت بالانتعاش والراحة.

لم تجد السيدة سانتون في المطبخ ولا في غرفة الجلوس. لا بد ان تكون اذن في غرفتها. لئلا تزعجها قررت ان تسخن الماء بنفسها. عليها اذن ان تسحب الماء بواسطة المضخة.

حملت دلواً كبيراً ووجدت المضخة في الساحة. وبينما كانت تباشر في تشغيلها، سمعت شخصاً يتقدم وهو يصفر، رفعت نظرها ولمحت احد الحراس. انه الحارس الصغير الذي عثر على نظارتيها يوم حادثة الثيران. ابتسمت له وقالت:

ـ صباح الخير، يا سيد.

فوجىء الرجل لرؤيتها، فتوقف حائراً، ثم قال:

ـ صباح الخير، يا آنسة.

انه اصغر الحراس ولا بد ان يكون في مثل عمرها. بعد تردد قصير، تقدم منها واشار اليها ان تبتعد كي يضخ الماء بنفسه، قائلاً:

ـ الدلو ثقيل بالنسبة اليك بخاصة عندما يمتلىء. سأحمله عنك.

افرغ الماء في قدر معدنية موضوعة داخل المطبخ، ووضعها على الفرن الحطبي، ثم اشعل بعض الوقود، فقالت له:

ـ شكراً جزيلاً. كنت اعتقد ان الجميع ذهبوا اليوم بعد الظهر الى المدينة.

من دون ان يتجرأ في النظر اليها، قال ببعض الانزعاج:

ـ ليس انا، يا آنسة، اسمي رفاييل.

اندهشت الفتاة من خجل الشاب الوسيم، ذي الشعر الأسود المجعد والقامة المتوسطة والمتينة. ابتسمت له وقالت:

ـ وانا اسمي جوسلين.

ـ انه اسم جميل. هل اعجبتك مدينة آلرز يا آنسة جوسلين.

ـ نعم... انها مدينة جميلة حقاً.

استرخى الشاب وسألها:

ـ هل ستبقين هنا حتى حين ولادة الطفل؟

ـ كلا، لا استطيع ذلك. سأعود الى انكلترا بعد اسبوعين. الجميع هنا يأملون ان يكون الطفل ذكراً، اليس كذلك؟ وربما يكون انثى جميلة.

ـ هنا، المولود الأول دائماً صبي.

لكنه اضاف بسرعة لدى سماعه طرقة باب في الممر:

- سأذهب الآن، لدي عمل.

لم يأت احد. كانت الفتاة تحب ان تتحدث مع رفاييل لمدة اطول، لتحسن لغتها الفرنسية. فحتى الآن باصغائها الى الحراس يتحدثون على مائدة الطعام، تذكرت تقريباً كل ما تعلمته في المدرسة، كما تعلمت بعض التعابير القروية المحلية.

ساعدت جوسلين، في غسل شعر ابنة عمها وراحت بدورها تغسل شعرها ايضاً. ثم لفته بمنشفة، وراحت تجعد شعر كاميليا بوضع ملاقط خاصة فيه. فقالت لها كاميليا بغيظ:

- لا افهم لماذا لا يجلب جيرفيه محركاً كهربائياً. فانا لا استطيع استعمال مجفف الشعر...

- المحرك الكهربائي يكلف غالياً. ربما ليس بامكانه ان يشتري واحداً.

- بلى... لديه المال الكثير. بامكانه ان يحسن اوضاع المزرعة بكاملها ويجعلها حديثة الطراز، لو لم يكن بخيلاً. اين اصطحبك الى الغداء في مقهى حقير، على ما اظن؟

- لم يكن مقهى من الطراز الأول، لكن الطعام كان من الدرجة الأولى. في الواقع، كنا ثلاثة اشخاص. لقد دعا فتاة تدعى سيلين دورانس.

- آه، صحيح! لقد سبق والتقيت بها مرة من قبل. انها فتاة سمراء... قصيرة... انيقة جداً. لقد وجدتها فتاة ناعمة ولطيفة.

بدا على كاميليا انها لا تعرف بأن عائلة سانتون كانت تأمل بزواج جان - مارك وسيلين. ماذا كان جيرفيه يقصد من كلامه اذن: لو كان جان - مارك يريد سيلين زوجة له، لاخبر كاميليا بذلك؟ الظاهر انها في الحقيقة رغبة العائلتين وليس الولدين. الواضح ان سيلين لا يبدو

انها تعاني من آلام الحب الضائع.

اضافت كاميليا تقول:

- حسب ما اخبرني جان - مارك، مزرعة آل دورانس مجهزة بكل وسائل الراحة الحديثة، من كهرباء وماء جارية، ساخنة وباردة... اي كل ما يجعل الحياة جميلة. والد سيلين ارسل ابنته الى باريس لتكمل دراستها. هو على الأقل، ليس محافظاً، او متعصباً. يبدو انه انسان حضاري.

- لكنني فهمت انه يربي ثيراناً من نسل مختلف. ومزرعته ربما تكون اكثر ازدهاراً من هنا.

- نعم، آل دورانس يرسلون حيواناتهم الى حلبة مصارعة الثيران في مدينة نيم. اما جيرفيه، فلا يريد الا ثيراناً تقوم بالسباق الحر.

- وما هو الفرق؟

- في السباق الحر، الحيوان غير مهدد بالموت. بين قرنيه توضع زهرة حمراء، وعلى الرجال محاولة قلعها. كان جان - مارك يشترك في الماضي في هذا السباق. لكنني رجوته الا يفعل ذلك بعد الآن، فوعدني خيراً. كان بطلاً محلياً لمدة سنتين متواليتين. لكنني غير مستعدة اطلاقاً ان ارى زوجي مشلولاً او مصاباً بفجوة بين اضلاعه... في الواقع، الثيران هي الابطال. لا بد ان جيرفيه حدثك عن ثور يدعى «الوحش» وهو اجمل ثور في المنطقة.

هزت جوسلين رأسها سلباً، فقالت لها كاميليا:

- حلم جيرفيه وطموحه في هذه الحياة ان يخطف هذا الثور. شيء لا يصدق، اليس كذلك؟

- آه، لا اعرف. المزارعون الانكليز يحاولون ايضاً الحصول على الحيوان الذي ينال الجائزة الأولى، او البقرة التي تعطي اكثر حليباً.

لكل حلمه. وانت، حلمك كان ان تصدر مجلة «فوغ» صورتك على غلافها.

- ما زلت محافظة على هذا العدد من مجلة «فوغ».

فجأة تقلص فم المرأة وامتلأت عيناها دموعاً، واضافت تقول:

- اذا استعدت وظيفتي الآن، فلا احد سيعرفني.

- آه، آه، بلى سيعرفونك. بعد شهرين، ستلدين وتستعيدين نحافتك، وتصبحين رائعة من جديد، بل اروع ربما.

قالت كاميليا بصوت مرتجف:

- صحيح؟ هل تعتقدين ذلك؟ بعض النساء لا يستعدن نحافتهن ابداً. آه، لم اعد احتمل بطني هذا! بالكاد اتجرأ على النظر الى نفسي في المرآة هذه الأيام.

قالت جوسلين بحزم وقسوة:

- كاميليا! انت الآن تقومين بتصرفات طفولية. انك اقل سمنة من معظم النساء. هيا، تشجعي، يا حبيبتي. غداً، في مثل هذه الساعة، سيكون جان - مارك قربك وسيراك رائعة، انا اكيدة من ذلك، ان كنت حاملاً ام لا.

وصل جان - مارك في اليوم التالي، بعد وجبة الغداء. قفز من السيارة وقبل عمته بحماس، ثم سلم على جيرفيه وربت على كتفه، والتفت نحو جوسلين وقال:

- وهذه ابنة العم الانكليزية! انا سعيد بالتعرف اليك، يا آنسة. ساحيني على غيابي... لكنها كانت رحلة عمل موفقة. الآن، لدي زوجة... وعما قريب، طفل... يجب علي ان اعمل مضاعفاً...

انحنى مبتسماً وقبل يدها وقال:

- والآن، المعذرة. اريد ان ارى زوجتي.

عندئذ اقترح جيرفيه قائلاً:

- بما ان جان - مارك وكاميليا يرغبان في قضاء بعض الوقت معاً، على حدة، ما رأيك لو تأتين معي لركوب الخيل، آنسة بيشوب؟

ذكرته قائلة:

- لكنني لم امتط خيلا في حياتي.

اجابها بهدوء:

- في هذه الحال، ساعلمك.

ثم اضاف بتحد:

- هذا طبعاً اذا كنت لا تخافين القيام بالتجربة.

بدا وكأنه يريد ان يضعها على المحك. او ربما يتوقع منها ان تجد حجة للرفض. فهو لا يرغب في رفقتها كما يبدو.

بلهجة ابتهاج وحماس، اجابت الفتاة:

- هذا لطف منك. سآخذ درساً في ركوب الخيل بكل طيبة خاطر. لأذهب اذن واغير ملابسي، وساعود اليك بسرعة.

لم يبد مندهشاً، بل قال ببساطة:

- وانا ساهيء الحصانين.

قالت الفتاة لنفسها وهي داخلة الى المنزل: «آه، ما الذي جرى لي!».

ولما عادت للقياه، كان قد وضع السرج على حصانه «قيصر» وعلى حصان آخر. قال لها بلطف، شاعراً بأنها غير مطمئنة كما يجب:

- لا تخافي، آنسة بيشوب. «ارسطو» حصان لطيف جداً. ضعي رجلك في هذا الركاب هنا، وتمسكي بالقربوس، وانا ساساعدك على امتطاء الحصان.

نفذت الفتاة ما قال لها بنجاح، فأحكم جيرفيه الركابين جيداً،

ثم قال:

ـ سأجلب شيئاً من المنزل. هل بامكاني ان اتركك وحدك لحظة؟

هزت الفتاة رأسها قبولاً، وتمسكت بالقربوس، آملة الا تصدر عن الحصان حركة مفاجئة. عاد جيرفيه حاملاً قبعة رمادية تشبه قبعته، لكنها اصغر واجد. وقال وهو يناولها اياها:

ـ انها تذكار من منطقة الكامارغ، لك، يا آنسة. آمل ان تليق بك.

اجابته متلعثمة:

ـ آه، شكراً.

ثم رأته يمتطي حصانه بخفة وعناية، ابعدت يديها عن القربوس، ثم خلعت نظارتيها واعتمرت القبعة التي لا شك انه اشتراها من مدينة آلرز يوم امس.

قرّب جيرفيه حصانه من «ارسطو» وانحنى ليري الفتاة كيف تمسك الزمام، قائلاً:

ـ هل انت مستعدة، آنسة بيشوب؟

هزت رأسها موافقة، ثم قالت عفوياً:

ـ ارجوك، ادعني جوسلين. فنحن اقرباء...

رمقها بنظرة ساخرة، غريبة، واجاب قائلاً:

ـ حسناً، كما تريدين.

ثم ربت على ظهر ارسطو وبدأ الحصانان سيرهما. وبسرعة، تعودت الفتاة مشية الحصان وتدريجاً، بدأت تشعر بالاسترخاء والاستمتاع بالنزهة.

الحصانان يتقدمان جنباً الى جنب، وجيرفيه لا يراقب الفتاة كثيراً. بل يصفر ويتأمل المنظر القاحل، بصمت واسترخاء. بعد ربع

ساعة، ابتعدا عن الطريق باتجاه مساحة واسعة من الأراضي المغطاة بالنباتات البرية من فصيلة السرمقيات. «قيصر» يتقدم «وارسطو» يتبعه. ولمدة لحظات قليلة، بدأت الفتاة تفقد توازنها فوق هذه الأرض الوعرة، لكنها تمكنت من البقاء على ظهر الحصان، ضاغطة الركبتين ومتمسكة بشدة بالقربوس. وعلى مقربة مستنقع صغير، خفف ارسطو سرعته بنفسه، وبينما كان يجتاز ستاراً من القصب ليدخل الى الماء، رأت جوسلين الرجل ينظر اليها بمرح وسخرية، فسألته:

ـ هل كنت تتوقع ان تراني واقعة عن ظهر الحصان، يا سيد سانتون؟

ـ ولماذا لا تناديني جيرفيه ببساطة؟

ـ كما تريد.

ـ ليس باستطاعتك ان تقعي عن ظهر ارسطو. فأي ولد يستطيع ان يركبه من دون مشكلة.

ـ اظنك بدأت ركوب الخيل مباشرة بعد ان تعلمت المشي، اليس كذلك؟

ـ حتى قبل ذلك. ولما كنت في السابعة من العمر، سمح لي والدي بمرافقة الحراس في اخذ الثيران المختارة الى السور حيث تجري المبارزات. اليوم، تؤخذ الثيران بواسطة الشاحنات، الا اذا كانت حلبة المبارزة غير بعيدة عن المرتع.

وبعد صمت قصير، اضاف يقول:

ـ في كل حال، لم تحصل مبارزات منذ وقت طويل.

ـ لماذا؟

نظر اليها مقطب الحاجبين وقال:

- بسبب الحرب.

احمر وجهها وقالت:

- نعم، طبعاً... انا حمقاء، المعذرة.

لانت نظرته وقال:

- لا ضرورة للمعذرة. حينذاك لم تكوني قد ولدت بعد. انه التاريخ بالنسبة اليك.

سألته بخجل:

- هل عانيتم الكثير في ايام الحرب، في هذه المنطقة؟

- القطعان ابيدت. ولما تحررت البلاد، لم يبق تقريباً اي حيوان على قيد الحياة. كلها ماتت، بسبب المرض، او نحرت لتغذية الألمان. حتى الثور لا يمكنه العيش الا اذا اعتني به.

ولما داس الحصان الأرض اليابسة من جديد، لمحت جوسلين على بعد ٥٠٠ متر تقريباً عدة حراس يجمعون قطيعاً تفرق. فتذكرت شيئاً ما وسألت جيرفيه:

- حدثتني كاميليا عن ثور يدعى «الوحش»، لماذا هذا الثور مشهور جداً؟

- عليك ان تطرحي هذا السؤال الى مارسيل روجيه! عندما كان حارساً صغيراً ربح الف فرنك، فقط لأنه تمكن من لمس جبين هذا الثور.

وبعد سير عشر دقائق، لمحا حصاناً يتقدم من بعيد باتجاههما، فقال جيرفيه بلهجة متهكمة:

- سيلين!

كانت سيلين تمتطي فرساً وهي ممددة على عنقه، شعرها يطير مع الريح. وصلت مسرعة، وفي اللحظة الأخيرة، امالت الحصان

وقامت بدائرة واسعة لتصطف قرب جيرفيه، بعد ان خففت سرعتها بشدة، حتى انتصب الحصان. يا له من مشهد رائع خاصة ان الحصان من دون سرج. انقطعت انفاس جوسلين خوفاً واعجاباً عندما رأت الحيوان يحرك حافريه في الفراغ، قبل ان يرجع الى ساقيه، هازاً عرفه الأبيض.

قال جيرفيه بلهجة قاطعة:

- قلت لك الا تفعلي هذا، يا سيلين. سيأتي يوم وتسببي موت حصانك!

اجابت الفتاة بسخرية:

- وستكون حزيناً، اليس كذلك؟

اجاب بقسوة:

- سأغضب ان رأيت حصاناً جيداً مجروحاً. ستشوهين وجهه وخاصة فمه، بهذه الحركات، كأنك في السيرك!

- آه، ما افعله لا يؤلمه ابداً، بل يفرحه.

ثم حيت الفتاة الانكليزية برأسها واضافت تقول:

- هل كنتما في الطريق لزيارتي؟

- كلا. مزرعتك بعيدة وجوسلين تركب الخيل للمرة الأولى. سوف نستريح تحت هذه الاشجار، قليلاً، قبل العودة.

اشار الى جل صغير من اشجار الصنوبر. فسبقتهما سيلين اليه، ثم انتظرت ان يهبط جيرفيه عن حصانه لتمد له ذراعيها كي يساعدها على النزول. وضعها ارضاً، تاركاً يده على كتفيها، فقالت له بلهجة مداعبة:

- لا تغضب مني. اذا كان ما افعله حقاً يقلقك، فلن اكرره ابداً.

هزها قليلاً وهو يمسكها بخصرها، ثم اجاب:

ـ حسناً، سأسامحك لهذه المرة.

ابتعد ليساعد جوسلين، التي رأت في تلك اللحظة ان الفتاة الفرنسية تأخذ تعبيراً غريباً، كأنها تشعر بالاستياء. لكن، ربما اخطأت، لأنه، ما ان جلسوا في الظل، حتى اخرجت سيلين مرآة صغيرة وسألت جيرفيه ان يمسكها، بينما راحت هي تسرح شعرها، راكعة قربه. ثم نظرت الى جوسلين وقالت:

ـ هكذا، اشتريت قبعة حراس ايضاً، يا آنسة.

قال جيرفيه في الحال:

ـ وانت، بحاجة ايضاً الى قبعة كهذه، يا صغيرتي.

ضحكت سيلين واجابت:

ـ لا تنس... فدم ابناء الريح يسيل في عروقي.

شرح جيرفيه للفتاة بمزاح:

ـ تحب سيلين التصديق بأنها تنحدر من السلالة البوهيمية.

فقالت سيلين باصرار:

ـ كل هذا حقيقي. في كل سنة، يأتي الغجر الى منطقة الكامارغ في عيد السيدة سارة. انه حدث كبير، تعزف الموسيقى الصاخبة، والناس يرقصون بسعادة وفرح. فمنذ سنوات عديدة كان والد جدي ما يزال شاباً وسيماً، التقى خلال هذا العيد بامرأة غجرية رائعة الجمال. وكان الحب من اول نظرة.

ابتسمت جوسلين وقالت:

ـ يا لهذه القصة الرومانسية الناعمة!

تدخل جيرفيه في الحديث مقاطعاً:

ـ لا، لأنك لا تعرفين بقية القصة. الغجر شعب يعارض الزواج المختلط وبول دورانس كان رجلاً محظوظاً لأنه لم يتلق طعنة سكين في

قلبه. لكنه لم يحتفظ بالفتاة طويلاً. انجبت له ولداً، وبعد سنة، عندما عاد الغجر، هجرت زوجها وولدها. فالغجر لا يتكيفون مع حياتنا الحضرية الثابتة، حتى في منطقة الكامارغ.

تنهدت سيلين وقالت:

ـ نعم، كانت نهاية محزنة. رفضت قبيلتها ان تأخذها من جديد. فرمت بنفسها في البحر وغرقت المسكينة. وتأسف والد جدي عليها كثيراً.

ذكرها جيرفيه قائلاً:

ـ لكنه مع ذلك تزوج مرة اخرى وانجب ستة اولاد... ربما وقع في الحب من اول نظرة مرة ثانية!

غضبت الفتاة الفرنسية وقالت:

ـ هذا ليس مزاحاً... انما مأساة. كيف باستطاعتك فهم تلك الأمور، وانت لم تعرف بعد معنى الحب!

تناولت من يده المرآة، ثم نهضت وادارت له ظهرها. لكن جيرفيه وجوسلين لاحظا الدموع في عينيها. كان الجو متوتراً. وادركت جوسلين ان جيرفيه ندم على ما حدث. لو كان وحده مع سيلين لربما اعتذر منها وحاول مؤانستها. لكنه اعلن ببساطة:

ـ حان وقت العودة.

صفرت سيلين لحصانها، فاقترب منها. امتطته بسرعة وتبين ان الانفعال غادر وجهها. سألتها جوسلين:

ـ هل تمتطين حصانك دائماً من دون سرج؟

ـ كلا، ليس دائماً. لا اهمية في ذلك، اليوم علي ان اجتاز المستنقعات ورفع ساقي... هذا كل ما في الأمر. وهذا مستحيل وعلى الحصان سرج.

جاء دور جوسلين ان تمتطي حصانها. فالمحاولة الأولى كانت فاشلة، اذ كادت ان تقع الى الوراء وآذت ركبتها. لكنها تجاهلت الأمر وحاولت من جديد، فهبطت على ظهر الحصان بكل ثقلها، فتألم الحصان وبدأ يخور. فقالت له:

- المعذرة، يا «ارسطو».

غريزياً، مدت يدها تداعب عنق الفرس، فاشتبكت نظراتها بنظرات جيرفيه فأحمر وجهها وتوقعت منه ان يهزأ منها، لكنه ادار لها ظهره وامتطى حصانه برشاقة. لما ابتعدت سيلين، قالت جوسلين:

- انها تركب الخيل بصورة رائعة، اليس كذلك؟

- انها جيدة في كل شيء.

وصلا الى المزرعة بصمت. شكرته الفتاة باقتضاب ودخلت الى المنزل. فتح جان - مارك باب غرفته بينما كانت جوسلين تمر امامه، فدعاها الى الدخول. كانت ابنة عمها جالسة في سريرها، ترتدي قميص نوم جديد من قماش الكريب الصيني، المشمشي اللون. فابتسمت وقالت:

- اليس هذا القميص رائعاً بالفعل، يا جوسلين؟ اشتراه لي جان - مارك من ليون . . . وهذا ايضاً.

اشارت الى اقراط توركوازيه وشال حريري. فابتسم جان - مارك وقال:

- وهذه هدية صغيرة لك.

فتحت جوسلين العلبة لترى شالا حريرياً آخر. فقالت مندهشة:

- آه، هذا لطف منك. . . شكراً.

وخلال نصف ساعة فهمت جوسلين ما الذي جذب كاميليا الى جان - مارك. وتساءلت كيف يمكن لشقيقين ان يكونا بهذا

الاختلاف الكبير. جان - مارك، شاب وسيم، لكنه ليس فخوراً بمنظره الجميل. بالعكس فهو مرح ودافىء، يستلطفه الآخرون لمجرد الجلوس معه، لأن رفقته ممتعة.

كان جالساً على السرير، ذراعه حول كتفي كاميليا، يتأملها بمزيج من الفخر والحنان، الى درجة ان جوسلين شعرت بانفعال كبير تجاهه. وفهمت في تلك اللحظة بأنه من المستحيل ان تفكر، مثل جيرفيه، بأن هذا الزواج محكوم عليه بالاخفاق.

في اواخر الاسبوع الثاني من زيارتها، كانت جوسلين جالسة على مقعد في الساحة عندما وصل جان - مارك من المدينة في حوالى الرابعة. قالت:

- صباح الخير. . . عدت باكراً اليوم. كاميليا ما تزال نائمة.

- لم تنم جيداً، هذه الليلة، المسكينة.

دخل الى المنزل وعاد حاملاً زجاجة عصير وكأسين. ملأهما واعطى واحداً لجوسلين ثم اشعل سيكارة، واتكأ على الجدار وقال:

- اريد ان اتحدث معك، على حدة. الوضع شديد الدقة. انت ترين ما يجري بين كاميليا وعائلتها. اريد ان اعرف رأيك بالأمر.

- بصراحة وصدق، ارى انه كان من الخطأ جلبها الى هنا.

- لم تكن هذه نيتي. لكن ماذا بوسعي ان افعل غير ذلك. كنت افضل البقاء في آلرز، لكن كاميليا رفضت الخروج من الشقة، بحجة انها اصبحت بشعة والناس يحدقون فيها بغرابة. . . وعندما شرحت لها بأن تصرفها هذا لا مبرر له، وان كل النساء يجتزن هذه المرحلة ليصبحن امهات، اجهشت بالبكاء وكادت ان تصاب بانهيار عصبي. امضت شهراً بكامله وحدها، لا تتحدث مع احد. لم يكن ذلك صحياً بالنسبة الى حالتها ولم يكن لدي الخيار.

- لكنها اخبرتني بأنها سقطت وجئت بها الى هنا بناء على وصية الطبيب بضرورة البقاء في السرير وعدم البقاء وحيدة.

- صحيح انها وقعت، لكن هذا لم يشكل اي خطر على صحتها او صحة الجنين. بقيت سجينة غرفتها بملء ارادتها، بينما كان الطبيب يفضل ان تعيش حياة نشيطة وحيوية اكثر.

اجابت الفتاة بحزن لأن ابنة عمها خدعتها وقالت:

- لقد فهمت الآن.

- ربما كانت عائلتي على حق، وما كان يجب ان اتزوجها. انها الآن تعيسة وليس باستطاعتي ان اقدم لها ما تحلم به في هذه الحياة: بيت كبير، سيارة فاخرة... خدم... وكل ما اعتادت عليه.

بلطف اجابت الفتاة:

- انت تحبها، وهذا اهم ما في الأمر.

- صحيح كنت افكر مثلك، لكن الآن... لم اعد اعرف شيئاً. لماذا عليها ان تضحي من اجلي وانا لا استطيع ان اقدم لها الشيء الكثير، لن اصبح ابداً رجلاً ثرياً، كما تحلم...

- لو كانت كاميليا تريد الزواج من رجل ثري، لتمكنت من ذلك. انت تقلل من قيمتك، يا جان-مارك. معظم النساء لا يخفن من القيام ببعض التضحيات في سبيل الحب. انا اكيدة بأن الوضع سيتغير بعد ولادة الطفل.

اجاب الرجل ببعض الشك:

- آمل ذلك. لكن عمتي واخي سيتطلبان وقتاً طويلاً كي يقتنعا بزواجنا، لأنهما ما زالا يعتبرانني غير مسؤول. غير انني اصبحت الآن رجلاً، وعلي ان اعيش حياتي، كما اريد.

- لو لم تتزوج كاميليا، لأصبحت حارس ماشية. هل

هذا صحيح؟

هز كتفيه وقال:

- ربما. من يدري؟ انا لا احب ان اعيش في شمال البلاد، ولا في باريس مثلاً. لكن منطقة الكامارغ ليست سوى جزء صغير من وسط فرنسا. والعيش هنا اقل اهمية بالنسبة الي، مقارنة بأخي.

- ومرسيليا؟

- احب هذه المدينة. هل تعتقدين بأن كاميليا ستكون سعيدة ان عشنا هناك؟

- نعم، اظن ذلك. مرسيليا مدينة انيقة ومرحة، على ما يبدو. وحسب رأيي، لن تتمكن كاميليا من التكيف مع الحياة هنا. حتى مدينة آلرز تعتبر قروية جداً بالنسبة اليها.

- اذن، تنصحينني بالاستقرار في مرسيليا، بعد ولادة الطفل؟

اجابت جوسلين بحذر:

- القرار يعود اليك انت. لا فائدة ان تكون كاميليا سعيدة وانت غير سعيد. هل بامكانك العمل في مدينة آلرز والعيش في مرسيليا؟ المسافة بين المدينتين ليست بعيدة في القطار، كما يقال.

- كلا، معك حق. ربما اذهب الى مرسيليا في الغد للبحث عن شقة. لكن هذا سيتطلب وقتاً طويلاً.

- لا تتسرع، يا جان - مارك. كاميليا بحاجة الى اسابيع بعد الولادة كي تستعيد كامل حيويتها ونشاطها. اذا اتخذت قراراً بسرعة، ستبلبل عائلتك. لو كنت مكانك، لما تحدثت عن شيء قبل تفكير طويل وناضج.

- نعم. معك حق. سأعلن هذا الأمر عندما يصبح واقعاً. شكراً لمساعدتك، يا جوسلين.

بدأت الفتاة تندم على ثرثرتها، فقالت:

ـ لست في وضع لأعطي رأيي...

ـ بالعكس... ليس لكاميليا احد غيرك. فهي تشعر بالاستقرار معك. لو كانت والدتي هنا...

هز كتفيه وتابع يقول:

ـ عمتي امرأة شجاعة، لكنها لا تفهم معنى الشباب اليوم.

ـ ماذا حدث لوالديك، يا جان - مارك؟

ـ كان والدي في المقاومة وقتل على يد الالمان. ووالدتي ماتت ايضاً في الحرب. مرضت ولم تكن ترغب في الحياة، من دون والدي. انا لا اتذكرهما ابداً.

ـ اذن، ربيت وترعرعت على يد عمتك، بينما راح عمك يهتم بالمزرعة، اليس كذلك؟

ـ نعم... وجيرفيه كان تعيساً للغاية. لم يكن عمي يحبه وكانا يتشاجران باستمرار. لهذا السبب، غادرنا جيرفيه لمدة ثلاث سنوات.

ـ ولماذا كانا يتشاجران؟

ـ كان عمي يتعاطى الخمور. وذات يوم، فقد وعيه وضرب اخي على وجهه... ومن ثم، اصبحت الحياة غير ممكنة لجيرفيه، هنا، تحت سقف واحد مع عمي و...

جاء صوت جاف يقول:

ـ تتكلم كثيراً، يا اخي.

انتفض جان - مارك والفتاة والتفتا معاً نحو الصوت، ورأيا جيرفيه على عتبة باب المطبخ. نهض جان - مارك مستاء وقال:

ـ سأذهب لأرى اذا كانت كاميليا استيقظت من نومها. آه، لقد

نسيت... هاتان رسالتان من انكلترا، لك، يا جوسلين.

ـ آه، شكراً... حان الوقت لأستلم اخباراً من عائلتي.

وضعت جوسلين الرسالتين في حقيبة يدها، فتقدم جيرفيه منها وجلس قربها، وقال:

ـ اعذري اخي لأنه ازعجك باخبار العائلة. فهذا لا اهمية له، من دون شك.

قالت الفتاة بعنف غير متوقع:

ـ على الأقل، اخوك يحدثني كإنسانة... ليس مثلك، تعتبرني آنية من كوكب آخر.

ـ في نظرك، انا اعاملك هكذا؟

ـ تستهجنني، كما تفعل مع كاميليا.

كتف يديه واتكأ على الجدار وقال:

ـ وماذا كنت تتوقعين؟ قصة حب بيننا؟

احمر وجه الفتاة وصرخت:

ـ طبعاً لا!

ارتسمت ابتسامة غليظة على شفتي الرجل الذي قال:

ـ لا تنزعجي. عندما جئت الى فرنسا، لا شك انك كنت تأملين ان تعيشي مغامرة عاطفية، وهذا امر طبيعي جداً. لكنك لاحظت ان لا شيء يهمك هنا، فخاب ظنك واصبحت تملين.

ادارت جوسلين وجهها، لا تعرف ماذا تفعل تجاه هذا الاسلوب الهجومي الجديد. وقبل ان يتسنى لها الوقت للرد عليه، تابع يقول:

ـ ماذا بك هنا؟ هل ارتطمت بشيء؟

اشار الى ركبتها المحتقنة من الاحتكاك بسرج الحصان. غطت الفتاة ركبتها بطرف فستانها وحاولت القول:

- هذا لا شيء يذكر...

انحنى نحوها وقال:

- دعيني ارى...

- لقد قلت لك... انه لا شيء يذكر...

- يا الهي! ليست قلة تهذيب ان تظهري ركبتك. لقد سبق وشاهدتها.

عضت الفتاة على شفتيها ورفعت تنورتها لتريه الزرقة على ركبتها وتقول:

- انها لا تؤلمني ابداً. ارتطمت ركبتي بالسراج، يوم الأحد.

- ولماذا لم تخبريني بذلك، كنت اعطيتك مرهماً.

- ليس هذا ضرورياً.

ثم لمح كدمة صغيرة، على ذراعها، فوضع اصبعه عليها وقال:

- وهذه الكدمة... من اين جاءت؟

- من حادث قديم، عندما كنت صغيرة... لكنني اكيدة بأن ذلك لا يهمك.

نهضت الفتاة بسرعة وقالت بصوت مسموم:

- اعذرني، سأدخل الآن الى المنزل.

ولشدة سرعتها، اوقعت قلمها، فانحنى جيرفيه يلتقطه، فقالت له، قبل ان تدير له ظهرها:

- آه، شكراً.

- جوسلين...

توقفت على مضض ونظرت اليه من فوق كتفها وقالت:

- نعم؟

- انت مخطئة اذا كنت تفكرين بأنني لا اراك جميلة. طبعاً، انا اعي

ذلك. ولو كنت اكبر سناً واكثر خبرة... لكنك صغيرة وغير مجربة وتريدين اظهار العكس. من الأفضل الا تعقدي هذا الوضع الصعب، اليس كذلك؟

وباشارة صغيرة من رأسه، ابتعد باتجاه الاسطبل. فبقيت جوسلين مكانها مندهشة، مصدومة، كأنها تلقت دوشاً بارداً، لم يسعها تصديق ما سمعته. شعرت بالغضب يحتلها، فأسرعت تقفل باب غرفتها وتقول لنفسها: «يا لرباطة جأشه... يا لهذه العجرفة التي لا تحتمل، والتي لا تغفر! يا للوقاحة... آه، يا للعجب والتفاخر!».

لم يظهر جيرفيه على مائدة الطعام، واخبرت العمة جان - مارك بأنه ذهب الى مزرعة آل دورانس. فشعرت جوسلين بالارتياح. ولم تتذكر الرسالتين الا عندما آوت الى فراشها. كانت واحدة من والدها والثانية من طوم كاليه. ويتأسف ادركت انها لم تفكر فيه منذ وصولها الى فرنسا. كانت رسالته مملة، يتحدث فيها عن الطقس ومشاكل محرك سيارته. ويقول بأن الجميع مشتاقون اليها.

لكن مهما يكن، اشعلت هذه الرسالة فيها الحنين الى الوطن. وقالت لنفسها: «عزيزي طوم. يا لك من شاب لطيف واكيد من نفسه. معك، لا توجد اي مشكلة».

وفي سريرها، ظلت تفكر بطوم وبالمستقبل وتقول:

- ليس لدي هدف في الحياة سوى الزواج، وهذه هي مشكلتي. فانا منطوية على مغالطة تاريخية. الشيء الوحيد الذي ارغب فيه، هو ان استمر في ادارة المنزل. واذا توظفت، فسيكون ذلك لفترة مؤقتة، بانتظار ان اصبح سيدة فلان. لماذا

الانتظار؟ لماذا اضاعة الوقت؟ لماذا لا اصبح زوجة طوم كاليه؟

ورددت لنفسها: حسناً، لست واقعة في حبه حتى الجنون. لكن ما هو الحب؟ هل يجب ان يكون الحب دائماً من اول نظرة؟ اليس الاتفاق اهم من الحب؟ لننظر الى كاميليا وجان - مارك: انهما يحبان بعضهما، لكن كم سيدوم هذا قبل ان يعالجا الاختلافات التي تفرقهما؟ بينما طوم وهي يتقاسمان الاشياء نفسها، ولا شك انهما يناسبان بعضهما تماماً...

وفي الأيام التالية، نادراً ما التقت بجيرفيه او رأته. واشرفت عطلتها على النهاية، لكن كاميليا كانت تصر عليها ان تمددها.

- حتى ولادة الطفل... ارجوك، يا جوسلين.

كما اصر عليها جان - مارك قائلاً:

- بعد اسبوعين، يقع عيد السيدة سارة. ولا يجب ان تفوتك هذه المناسبة النادرة.

- كلا سأذهب في الموعد المتفق عليه.

قالت كاميليا ناحبة:

- لكنني بحاجة اليك. لو كنت مكانك لما ذهبت. هذا اقل ما اطلبه منك.

- كاميليا، لا تتحمسي كثيراً، فحماسك لن يجدي شيئاً. لن تتم ولادتك قبل شهر، وانا لا يمكنني ان ابقى طويلاً.

- انت فتاة شريرة. لا احد يجبرك على الذهاب، ولا تريدين البقاء هنا بكل بساطة. اذا كان هذا المكان لا يعجبك، فكيف بالأحرى انا؟

... كلما جرى مثل هذا الحديث، تمتلىء عينا كاميليا بالدموع السخية، ويسرع جان - مارك لمؤاساتها. لكن جوسلين ما زالت

مصرة على عدم الاستسلام لهذا النوع من التهديد التي تبرع فيه ابنة عمها. لم تعد تشفق عليها خصوصاً منذ عرفت بأنها تمضي وقتها في السرير، من دون سبب صحي، وتطلب من الآخرين الاهتمام بها. عبست كاميليا ولم تعد تحدث جوسلين ليوم بكامله. فقالت لها هذه الاخيرة:

- اسمعي، يا كاميليا، حان لك ان تهزي نفسك. على الاقل كوني لطيفة مع زوجك، الذي ينشغل باله عليك باستمرار.

- على الأقل، ليس جان - مارك مثلك.

- بالي مشغول عليكما معاً. بصراحة، يا كاميليا، انك لا تقدمين شيئاً من نفسك.

- وماذا تريدينني ان افعل؟

- في البداية تناولي طعامك مع بقية افراد العائلة.

- ماذا؟ مع كل هؤلاء الرجال؟

- لا تكوني حمقاء. ان تصرفاتهم لطيفة ومحببة. وكلما اصغيت الى حديثهم، تتعلمين اللغة الفرنسية بسهولة. حان لك ان تتقني لغة زوجك.

- اذا كنت تقفين الى جانبهم، فمن الأفضل عليك ان ترحلي من هنا ابتداء من نهار الغد.

كانت جوسلين تحاول جهدها ان ترشدها، لكن من دون جدوى. فكاميليا امرأة عنيدة جداً. تبكي من جديد وتضع كل اللوم على ابنة عمها.

لو كان الاتصال الهاتفي ممكناً، لاتصلت جوسلين بوالدها تطلب منه نصيحة. ربما يقول لها ان تبقى. لكنها تذكرت نصيحة الطبيب يوم مغادرتها انكلترا حين قال لها: «لا تقفي دائماً الى جانب كاميليا،

ولا تقفزي الى الاستنتاجات بسرعة. ربما تكون ابنة عمك طائشة لكنها تكبرك بثلاث سنوات وباستطاعتها ان تدافع عن نفسها وحدها...».

بعد ظهر اليوم التالي، اي قبل يومين من موعد سفرها، كانت جوسلين تنظف صندلها في غرفتها عندما سمعت صراخاً جعلها تركض الى غرفة كاميليا. لكن ابنة عمها كانت تغط في نوم عميق.

اغلقت الباب بهدوء، وسمعت نحيباً آتياً من طرف الممر. فاسرعت الى المطبخ مذعورة ورأت السيدة سانتون ممددة على الارض. فاعتقدتها ميتة وانصدمت. الرجال كلهم في العمل، وليس في المنزل غيرها.

ركعت قرب العجوز ولمست يدها، فسمعت نبضها. وبعد ثوان معدودة، فتحت العمة عينيها ناحية.

عندما عاد جيرفيه الى المزرعة، بعد مرور ساعة على الحادث، اسرعت جوسلين الى الخارج، صارخة:

ـ شكراً، يا الهي، انت هنا. جرى حادث ويجب استدعاء الطبيب.

قفز عن حصانه وقال:

ـ ماذا جرى لكاميليا؟

ـ كلا، كلا... انها عمتك. وقعت في المطبخ. التوى كاحلها وارتطم رأسها. اخاف ان تكون مصابة بارتجاج في الدماغ، فقد ظلت فاقدة الوعي بضعة دقائق.

ـ اين هي؟

ـ في غرفتها، في السرير.

ـ هل حملتها من المطبخ الى غرفتها؟

ـ كلا، حاولت ذلك، لكنها كانت ثقيلة. فاتكأت علي، لم اتمكن من تركها ممددة على الارض. لو كانت مصابة بكسر، لما حركتها.

لما رأت العجوز ابن اخيها، حاولت الجلوس وشرح الحادث، فقال لها جيرفيه:

ـ على مهل... على مهل.

كانت جوسلين قد وضعت وسادة تحت الكاحل المتورم وكمادات باردة عليه. فقالت:

ـ يجب تصوير القدم على الاشعة، للتأكد بانها حقاً غير مكسورة.

لم يعلق جيرفيه على ما قالته، لكنه تفحص مكان الرضة في الرأس. وبعد ان طمأن عمته، اشار للفتاة ان تخرج وتتبعه. في الممر، قال لها:

ـ لا تقلقي، فالأمر غير خطير.

ـ هل يتطلب استدعاء الطبيب وقتاً طويلاً؟

ـ ليس هذا ضرورياً. عمتي تتمتع ببنية جيدة. ليست بحاجة سوى للبقاء في السرير بضعة ايام.

ـ لكنها تلقت ضربة على رأسها، ربما تكون خطيرة...

ـ انا خبير بذلك.

ـ لكنك لست طبيباً.

ـ كل اصحاب الماشية على معرفة عميقة بالأمور الطبية. احياناً، لا يمكننا انتظار الطبيب في بعض الحوادث. صدقيني، فلا خطر على عمتي.

تبعته حتى وصلا الى المطبخ، ثم قالت:

ـ حسناً. انها مسؤوليتك. لكن لا شك انها بحاجة الى اسبوع راحة، على الأقل. من سيهتم بالمنزل مكانها؟ كاميليا لا تستطيع

ذلك، طبعاً.

اغلق الباب قبل ان يتكىء عليه، مكتف اليدين، وقال ببرود:

ـ كنت اتوقع منك ان تتبرعي لنا بخدماتك، وتكوني انت من يحل مكان عمتي.

ـ هل نسيت بأنني سأسافر بعد غد؟

ـ لكن بامكانك ان تؤجلي موعد سفرك، في مثل هذه الحالة الطارئة.

ـ كلا... كلا...

سألها بلهجة ساخرة وبريق تحد في عينيه:

ـ هل تخافي ان تكوني غير قادرة على تحمل مثل هذه المسؤولية.

ـ ليس هذا هو الأمر. لا شك بان نساء الحراس سيقدمن مساعدتهن للسيد...

ـ لم تصدقي بأنني كنت اتكلم بجدية، اليس كذلك؟ لا اريد ان اجرح شعورك، لكن...

هز كتفيه، فغضبت الفتاة وقالت:

ـ تريد ان تقول بأنني لا استطيع تحمل هذه المسؤولية، اليس كذلك؟

ـ لماذا؟ هل انت قادرة على ذلك؟ هيا، تعقلي... واعترفي لمرة واحدة بأنني على حق. كنت اناكدك، يا صغيرتي...

ـ انت تقلل من شأني، يا سيد. فانا بامكاني ان ادير هذا المنزل، وسأبرهن لك ذلك وستكتشف بأنك كنت مخطئاً.

بعد صمت، ابتسم وقال:

ـ حسناً... ما دمت تصرين، سنرى.

وغادر المكان. فهمت حينئذ بأنها وقعت في الفخ. لقد تحداها جيرفيه ونجح. واذا غيرت رأيها الآن، ستدفع غالياً ثمن كلماتها المتهورة. ذلك لأنها ادركت في هذه اللحظة انها لا تستطيع ادارة هذا المنزل وحدها: ثلاث وجبات كل يوم، للزينة حراس جائعين... تلال من الصحون والأواني للجلي، ضخ الماء وتسخينها في فرن قديم يشعل على الحطب... آه لا، هذا امر غير وارد!

www.elromancia.com

٤ - استقرت في مهماتها الجديدة مخفية ما استطاعت ملامح تعبها. واكتشفت برعب ان شخصاً ما تقصد تشويه سمعتها كطاهية جيدة، وبرعب اكبر انها واقعة في حب جيرفيه!

دخلت جوسلين الى غرفة ابنة عمها واخبرتها في الحال قائلة:

ـ غيرت رأيي، يا كاميليا. سأبقى هنا مدة اطول.

ـ آه، يا جوسلين، هذا خبر مفرح! انت ملاك... كنت اعرف بأنك ستقبلين اخيراً.

ـ لم تفهمي ما جرى. لقد اصاب السيدة سانتون حادث.

جلست الفتاة على حافة السرير لتشرح لكاميليا ما جرى للعمة. فقالت المرأة الحامل بعد سماع القصة:

ـ حسناً. سيرسل جان-مارك في الغد برقية الى عمي جون ويخبره فيها بأنك اجلت موعد سفرك، ولا تعرفين بعد متى ستعودين.

شعرت جوسلين برغبة ملحة ان تهز هذه المرأة الأنانية بعنف،

لكنها اكتفت بالقول في لهجة جافة:

ـ بقائي هنا ليس سهلاً علي. هل تتخيلين الوضع؟

ـ هذا جنون وحمق... ستتدبرين امرك بروعة. انت موهوبة جداً في القيام بالأعمال المنزلية.

تثاءبت المرأة وتمطت، ثم اضافت تقول:

ـ اخيراً، سنأكل من يدك الطعام اللذيذ، الانكليزي، بدلاً من هذه المأكولات المليئة بالزيت والثوم. هل تعتقدين بأننا سنتمكن من اكل لحم البقر هنا بدلاً من الضأن كل يوم كل يوم...

كبتت الفتاة حنقها، وقالت بحزم:

ـ الآن اسمعيني، يا كاميليا. لن اتمكن من القيام بهذا الدور المفروض علي الا بشرط واحد، وهو ان تساعديني. الظاهر انك لا تعرفين مقدار العمل الذي تقوم به العمة كل يوم. فاذا لم تعديني بالتعاون، سأضطر ان اقول لجيرفيه بأنني لا استطيع ادارة هذا المنزل وحدي. في كل حال، لا اظنه يعتقد بأنني قادرة على ذلك. كما انا لست اكيدة ايضاً من امكانيتي في تحمل هذه المسؤولية الكبيرة. لكنني سأحاول... فقط اذا تحركت معي قليلاً. والا سأسافر في الوقت المحدد، وانا جدية بما اقول.

ـ ماذا تقصدين؟ انا ليس بمقدرتي ان انظف هذا المكان.

ـ كلا، طبعاً. اذاً كنت سأطبخ للحراس وانظف البيت واهتم بالعمة، فلن استطيع ان احضر صينية طعامك واجلبها لك الى غرفتك. عليك اذا ان تتناولي الطعام معنا، من الآن فصاعداً.

ـ كلا. لا استطيع ذلك... ليس من العدل ان تطلبي ذلك مني.

اجابت الفتاة بهدوء:

ـ حسناً، في هذه الحال، لن احل مكان العمة المريضة. والآن، سأذهب واطمئن عن حالها، ثم اقول لجيرفيه ان يتدبر غيري.

خرجت الفتاة بسرعة غير تاركة لكاميليا اي مجال لاستعمال لغة الدموع المعروفة عنها. فوجدت العمة تحاول خلع ملابسها وحدها، ولما ارادت جوسلين مساعدتها، رفضت العجوز بعناد، واحمرت خجلاً. لكن جوسلين اصرت عليها بتهذيب. ولما وضعت العجوز اخيراً في سريرها، ذهبت الفتاة الى غرفة الجلوس لتعد مائدة الطعام. فالعشاء ليس مشكلة، لأن الحراس يأكلون عادة الخبز والسلطة والجبنة واللحوم الباردة. بينما الغداء يتطلب وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً.

كانت في المطبخ تطحن البن عندما دخلت كاميليا. كانت ترتدي فستاناً كتانياً احمر، وتتعل صندلاً ذهبياً يتناسق مع اساورها. قالت بصوت الضحية:

ـ ها انا ارتديت ملابسي.

حضنتها جوسلين بين ذراعيها وهمست:

ـ م.م.م... رائحتك ذكية. شكراً، يا كاميليا. اؤكد لك بأن الامر سيكون اقل صعوبة مما تعتقدين. هل تريدين فنجان قهوة؟

ـ نعم، لكن ليس هنا. فالجو خانق.

خرجت من الغرفة وهي تقول:

ـ ـ لا اعرف ماذا ستكون ردة فعل جان-مارك عندما يعلم بأنك ارغمتني على مغادرة الفراش.

ـ سأجلب القهوة الى غرفتك.

وصل جان - مارك بعد حوالى نصف ساعة. سلم على عمته وعلى زوجته، ثم جاء الى المطبخ ليتحدث مع جوسلين:

ـ جوسلين، هل تعتقدين بأنه من الحكمة ارغام كاميليا على تناول الطعام معنا؟ انت لا تصرين على رؤيتها مرتبكة ومتوترة، اليس كذلك؟ كما تعرفين انها امرأة شديدة الحساسية!

ـ الأمر يتعلق بك. لكن بنظري انا، خروجها من السرير سيفيدها كثيراً.

حك الرجل ذقنه متردداً، ثم قال:

ـ ربما تكونين على حق، لا ادري.

دخل جيرفيه، صافح اخاه ورمى قفاذتيه وقبعته على الكرسي، ثم قال:

ـ الرجال مستعدون للدخول. هل تريدين اية مساعدة؟

اجابت الفتاة من دون ان تنظر اليه:

ـ كل شيء جاهز، شكراً. ربما تفضل الاهتمام بالمشروب؟

ـ نعم، طبعاً.

خرج الشقيقان من المطبخ. وضعت جوسلين بيضتين في المقلاة وسخنت بعض الحليب، ثم اخذت صينية العشاء الى العمة، وفوجئت بجيرفيه هناك. قطع الرجل حديثه ونهض. فاقتربت الفتاة من سرير العمة وقالت:

ـ آمل ان يعجبك الطعام، يا سيدتي. اذا كنت تفضلين شيئاً آخر، سأحضره لك بسرور.

شكرتها العمة بلطف، على غير عادتها، واستقبلت الصينية بفرح.

قالت جوسلين لجيرفيه:

ـ ستشعر السيدة براحة اكثر اذا كان باستطاعتك ان تضع اطاراً على حافة السرير، يمنع ثقل الاغطية عن قدمها المصابة.

- حسناً، سأهتم بالأمر بعد العشاء.

نظرت اليه الفتاة مباشرة في عينيه وقالت:

- آه، هناك شيء آخر. لقد نجحت في اقناع كاميليا ان تتناول العشاء معنا، في المساء. وستكون تلك تجربة بالنسبة اليها. سأتكل عليك في ان تجعل الجو هادئاً لها.

- طبعاً.

- شكراً.

توجهت الفتاة نحو الباب، فتبعها، فتح لها الباب، ثم قال بمرح:

- ستحدث تغييرات جذرية في نظام البيت، على ما اظن.

- ربما. هل اخبرت العمة بأنني سأتوكل بادارة المنزل مكانها؟

- ليس بعد. سأخبرها بالأمر غداً صباحاً... اذا لم تغيري رأيك.

وخرج من الغرفة قبل ان تتمكن من الرد عليه.

كان الحراس على مائدة الطعام عندما قدم جان - مارك زوجته الى الجميع. فنهض الحراس وحيوا المرأة بصوت واحد «مساء الخير، يا سيدة سانتون». ثم جلسوا لمتابعة حديثهم. طبعاً، وجود المرأة، النارية الشعر، التي سجنت نفسها طوال هذا الوقت في غرفتها، يثير فيهم الاهتمام، لكن فضولهم ظل مكبوتاً، وتصرفهم مهذباً.

جلست كاميليا على طرف الطاولة، يحيط بها زوجها واخوه، بينما جلست جوسلين قرب جان - مارك الذي بدأ يتحدث بتفصيل عن نهاره، في مدينة آلرز. ثم طلب من الفتاة ان تخبرهم مفصلاً عن حادثة العمة. وان صمت ثقيل بعدما انتهت من الحديث. لكن جيرفيه قطعه، اذ التفت نحو كاميليا وراح يحدثها بلطف ومحبة. استرخت المرأة بسرعة وابتسمت وهي تتكلم معه، كأن لا خلاف

بينهما.

بعد العشاء، رفضت كاميليا الذهاب مباشرة الى غرفتها وارادت الجلوس في الساحة مع زوجها. وذهب جيرفيه ليهتم باطار سرير العمة، بينما جلست جوسلين، حالمة، تحاول طرد الأفكار القلقة من رأسها. ثم نهضت وباشرت بافراغ الصحون عن المائدة.

- هل بامكاني مساعدتك يا آنسة جوسلين؟

انتفضت الفتاة وقالت باستغراب:

- آه... رفاييل. لم اسمعك تدخل.

- آسف. هل بامكاني مساعدتك؟

- هذا لطف منك، لكنني قادرة ان اتدبر امري بسهولة. انت عملت طول النهار.

- لكنني لا اشعر بالتعب. انه لفرح كبير ان استطيع مساعدتك، يا آنسة.

- حسناً... ما دمت مصراً... شكراً.

بعدما جلب الشاب الصحون المستعملة الى المطبخ، بدأ يساعد في تجفيفها. فاندهشت الفتاة لأنها اعتقدت بأن هذا العمل بالنسبة اليه خاص بالنساء فقط. وراح يخبرها بأن والده صاحب دكان لبيع البن في مدينة آلرز. لكن جده كان حارس ماشية وورث عنه هذا الميل. كما أخبرها بأنه ربح كمية من المال لا بأس بها، فاشترى لنفسه درّاجة وجهاز راديو.

- سأريك المذياع، يا آنسة.

خرج الشاب بسرعة، ولما عاد، وضع المذياع على الطاولة واداره وقال:

- آه، موسيقى البوب. هل تحبين الرقص، آنسة جوسلين؟

ـ آه، نعم، كثيراً.

راح الشاب يرقص حول الطاولة، ويحمسها على الانضمام اليه. بعد تردد قصير، شاركته بفرح. فجأة، توقفت الموسيقى وقال الصوت:

ـ آسف لافساد فرحكما، لكن يبدو انكما نسيتما بأن العمة مريضة وان الضجة تزعجها.

كان هذا الكلام صادراً عن جيرفيه، المتقلّص، الواقف على عتبة الباب.

اعتذر رفاييل وحمل مذياعه وولّى. فقالت جوسلين محتجة:

ـ لم تكن الموسيقى صاخبة، وأنا أكيدة بأن العمة لم تسمع شيئاً.

سألها متجاهلا كلامها:

ـ ماذا كان يفعل هنا؟

ـ كان يساعدني في غسل الصحون وتجفيفها. يبدو انه صبي لطيف.

رفع جيرفيه حاجبيه وقال:

ـ صبي؟

ـ أظن ان عمره أقل من عشرين سنة.

ـ عمره ١٩ سنة. لكن هنا الرجال يبلغون باكراً. انه رجل، يا صغيرة... وبالنسبة اليه، انت امرأة.

ـ ماذا تعني بالضبط؟

ـ اذا كنت لطيفة معه سيعتقد بأنك تريدين مغازلته.

ـ آه، صحيح! هذا تافه! أنا اكيدة بأن هذه الفكرة لم تخطر بباله. فهو ليس من هذا النوع. انه خجول جداً.

ضحك جيرفيه بسخرية وقال بجفاف:

ـ جميع الرجال يعتقدون ذلك عنه. انه يتصرّف بحذر معك الآن، لأنك ضيفتنا، لكنه رجل ذو تجارب عديدة. ربما لا تعرفين بأن الرجل الفرنسي يعتبر الفتاة الانكليزية طائشة وسهلة المنال.

اجابت ببرود:

ـ في هذه الحال، لا تقلق من جهتي.

ـ لم أقل بأني احبّذ هذه النظرية، لكنني احذرك ببساطة من الرجال الفرنسيين عامة، ومن رفاييل خاصة، لأنه ربما يكون من دعاة هذه النظرية.

ـ لكنه سيتخلى عن اوهامه بسرعة متى عرفني.

ـ من الأفضل الا نصل الى هذا الحدّ.

في تلك الأثناء دخل جان ـ مارك وقال:

ـ تريد كاميليا ان تأوي الى فراشها، وتسأل اذا كان بامكانك ان تسرّحي لها شعرها، يا جوسلين.

ـ بكل سرور. اعذرني، يا سيد سانتون.

سألت كاميليا ابنة عمها:

ـ ماذا جرى لجيرفيه؟ كان شديد اللطف معي على مائدة الطعام. ماذا قلت له؟

ـ أنا، لا شيء. منذ لحظة كان يوبخني ويعظني لأنني لم اتصرّف بلياقة.

وشرعت تخبرها عن حادثة المطبخ، فقالت لها كاميليا:

ـ نظرته في محلها. صحيح انك تملّين هنا حتى الموت، لكن لا يجب عليك ان تشجعي هذا النوع من الناس.

احتجت الفتاة وقالت:

ـ لكنني لم اشجعه. وماذا تعنين بـ... هذا النوع من الناس؟

ـ لا تكوني حمقاء، يا حبيبتي. في انكلترا، لا يمكنك ان تخرجي مع شباب من هذه البيئة الاجتماعية.

ـ هل نسيت بأن جان ـ مارك كان حارس ماشية أيضاً؟

ـ هذا امر مختلف. آل سانتون اصحاب ماشية ومعروفون. حسب رأيي، لا يجب للحراس ان يدخلوا عتبة هذا المنزل اطلاقاً. على الأقل لو ينزعون قبعاتهم خلال الطعام.

ـ هنا، التقاليد لا تطلب منهم ذلك. لماذا لا يمكنك ان تتقبليهم على حقيقتهم انهم أفضل بكثير من الشباب المختنثين الذين كنت تخرجين معهم، في لندن.

ـ صحيح بأن لك افكاراً غريبة! لم تجادلي هكذا، في الماضي. ما بك؟ لقد تغيّرت منذ وصولك.

ـ آه، صحيح؟ لا أشعر بأنني تغيرت. والآن، سأستعير ساعة المنبه، كي أفيق باكراً في الصباح وأعجن الخبز!

ـ يا الهي! هل تعرفين صنع الخبز؟ أنا لا أعرف أي شيء عن هذا.

ـ آه، نعم. انها عملية سهلة جداً.

في الخامسة الاّ ربع دقت ساعة المنبه، فنهضت جوسلين من نومها، وقفزت من السرير وفتحت النافذة على مصراعيها. لم يبدأ النهار بعد. لكن بينما كانت تغتسل وترتدي ملابسها، سمعت صياح الديك. الجميع ينامون ولم يظهر الحراس الاّ بعد السادسة.

وفي طريقها الى المطبخ عرّجت على غرفة العمة للاطمئنان عنها. رأتها نائمة بهدوء. وبينما هي خارجة من الغرفة، انتفضت مكانها: هناك انسان آخر في الغرفة! انه جيرفيه، نائم على الكرسي، مكتّف اليدين، وذقنه فوق صدره. وبينما كانت تراقبه، تحرك لكنه لم يفق من

نومه. فتساءلت الفتاة اذا كان من واجبها ان توقظه لتطلب منه ان يذهب الى سريره وينام قليلا قبل بدء نهار العمل الطويل. فتقدمت منه، ثم ابتعدت، مقررة عدم ازعاجه.

في المطبخ، وجدت صعوبة في اشعال نار الفرن. ثم تمكنت من ذلك بعدما ملأت يديها ووجهها بالغبار الأسود. اغتسلت ثم جلبت الطحين والخميرة بغية تحضير عجين الخبز. كان عملا متعباً وصعباً. ولما انتهت، وضعت العجين قرب النار ليتخمر لمدة ساعة تقريباً. ثم راحت تمسح أرض الغرفة. وفي حوالى السادسة كان الخبز في الفرن والقهوة معدة. سكبت لنفسها فنجاناً وجلست قليلا لتحتسيه.

فجأة، أضيء المطبخ بأشعة شمس الشروق، فقامت وفتحت الباب. من الشمال، ما تزال السماء رمادية، بينما، شرقاً، كانت وردية مذهبة. مشت الفتاة نحو الساقية حيث ينبت السوسن البرّي. وما لبث ان اختفى الضباب الصباحي مع طلوع الشمس.

بعد قليل، برزت ثلاثة أحصنة فجأة من وراء الضباب، هزت اعناقها واذنابها... ثم اختفت. لم تحدث اي ضجة لأن حوافرها منتزعة فبدت كاشباح خيالية... وفي هذه اللحظة بالذات، عرفت جوسلين بأن ابنة عمها على حق: نعم لقد تغيّرت منذ وصولها الى هنا. ومن دون وعي او ادراك، وقعت في حب هذا المكان... في حب هذا البلد المنغلق، الغريب.

عادت الى المطبخ لتجد جيرفيه يسكب لنفسه القهوة. كان قد حلق ذقنه وغيّر قميصه ولم يبد أنه قضى الليل كله نائماً على كرسي صغير، غير مريح.

ابتسمت له، ناسية مشاحنة الامس وقالت:

ـ صباح الخير. الطقس رائع اليوم.

ـ صباح الخير. وانت أيضاً تبدين بمزاج رائع. منذ متى بدأت العمل؟

ـ منذ الخامسة. هل تريد ان تأكل شيئاً الآن؟

ـ كلا، شكراً. ليس الآن.

ـ لا شك انك تعاني من آلام في الظهر. عندما استيقظت، عرجت على غرفة العمة لأطمئن عنها، فوجدتك نائماً على الكرسي.

ـ آه، فهمت. نعم، اشعر بتيبس بسيط في ظهري. لكن ذلك سينجلي بسرعة.

لم تعرف الفتاة ما الذي دفعها الى القول:

ـ انت تحب عمتك كثيراً، أليس كذلك؟

ـ كان هناك احتمال بسيط ان تكون كدمة رأسها خطرة أكثر مما توقعت في البداية. لذلك فضّلت البقاء قربها لمراقبتها. لكن قلبها ينبض جيداً، وحرارة جسمها عادية. انها تتنفس بشكل طبيعي، ولم يعد هناك اي سبب للقلق عليها.

ـ آه... أنا سعيدة لهذا الخبر.

اتجهت الفتاة نحو الخزانة، فتحت أحد الادراج لتخرج منه السكاكين والملاعق، لكنها قبل ذلك، التفتت نحوه وقالت:

ـ اعتقد أنه من واجبي الاعتذار منك. لقد انزعجت كثيراً منك عندما رفضت استدعاء الطبيب. لكنني أرى الآن بأنك قلق عليها مثلي... بل ربما أكثر. أنا آسفة يا سيد سانتون.

حدّق بها من دون أن يردّ وكانت نظرته مليئة بالتهكم. لكنه ابتسم لها قبل ان يقول:

ـ هل تعرفين ان تحلبي البقر؟

ـ كلا... لا أعرف.

ـ اذن، سأحلب البقرة أنا، مكانك.

ذعرت الفتاة وصرخت:

ـ آه، يا الهي. نسيت الحليب على النار.

ثم اضافت بقلق:

ـ كما لا اعرف صنع الزبدة، أيضاً.

ـ لا أهمية لذلك. سأوكل احد الحراس بهذه المهمة، لبضعة أيام. صناعة الزبدة عمل صعب ومتعب، لمن ليس معتاداً عليه.

خرج جيرفيه ليحلب البقرة، تاركاً الفتاة مندهشة امام لطفه الغريب.

في الصباح، وصل الطبيب لتفقّد صحة المرأة الحامل، ففرح لرؤيتها خارج السرير. وهنأ جوسلين بذلك، فوجدته الفتاة انساناً لطيفاً، ووثقت به عندما طمأنها بأن لا خطر على صحة كاميليا والطفل وان الحمل يسير بشكل طبيعي. كما قال لها بأن العمة بحاجة الى أسبوع راحة كي تستعيد نشاطها الروتيني من جديد.

احضرت جوسلين للغداء ثلاث فطائر بالجبن والبصل والكوسى، فلاقت نجاحاً كبيراً ولم يبق لها اثر في نهاية الطعام.

ومع ذلك، فبينما كانت تجلي الصحون، شعرت بالحزن وبعض الانهيار النفسي والكآبة: «اما كان بامكان جيرفيه ان يقول لها شيئاً بدوره». جميع الحراس اثنوا عليها بكلمات المديح، لكن جيرفيه غادر الطاولة من دون ان ينظر اليها.

ولمدة ثلاثة أيام متتالية، كانت جوسلين تعمل بقسوة، تكبت احياناً دموعها بسبب الألم تملأ كل انحاء جسمها. لكن، كلما رأت جيرفيه في الجوار، تتذرع بالنشاط وترندح الاغاني باسترخاء.

ذات مساء، أعلن لها جيرفيه بأنه سيذهب الى مزرعة آل دورانس

وطلب منها مرافقته، فاعتذرت منه وقالت:

ـ كلا، لن آت. سأغسل شعري واكتب بعض الرسائل الضرورية ولا وقت لديّ للزيارات.

رمقها بنظرة ثاقبة وقال:

ـ انت شاحبة الوجه. هل عمل المنزل يتعبك كثيراً؟

ـ كلا. أنا أحب ان أشغل نفسي. هل انت مستاء من خدماتي؟

ـ لا أظن ان الرجال مستاؤون من اي شيء.

نظرته الباردة جرحت مشاعرها الى درجة انها ادارت له ظهرها وخرجت بسرعة لئلا يرى الدموع في عينيها. وفي تلك الليلة لم تعرف طعم النوم. في منتصف الليل، نهضت من فراشها ووضعت على وجهها عطراً منعشاً ثم اسندت يديها على النافذة وراحت تصغي الى تغريد العندليب وشعرت بالانفعال يخنقها. المستنقعات تلمع تحت ضوء القمر كبحيرات فضة تذوب. ولما عاد جيرفيه من سهرته، كانت جوسلين ما تزال جاثمة أمام النافذة، لكنها ابتعدت وراءها... أخيراً، نامت.

في صباح اليوم التالي وبينما كانت تعد مائدة الطعام، دخل اليها جيرفيه، فحيته باقتضاب واستمرّت في عملها. فقال لها:

ـ رأيت الغجر يخيّمون قرب الطريق، مساء امس. ربما سيتوقفون هنا، في طريقهم الى الاحتفال بعيد السيدة سارة. فلا تقلقي، لن يسرقوا شيئاً. واذا قدمت لهم الحليب والخضرة، سيكشفون طالعك.

ـ أنا لا أؤمن بالتنجيم ولا بكاشفات البخت هذه كلها حماقات!

ـ بامكانك ان تصغي اليهن بتهذيب، من غير ان تصدقي أقوالهن.

قالت من دون ان تنظر اليه:

ـ آسفة...

ـ ما الذي كان يمنعك من النوم مساء امس؟

اجابت مندهشة:

ـ هل رأيتني؟

ـ رأيت شيئاً يتحرّك وراء النافذة.

ـ نعم، كان الحرّ شديداً. هل امضيت سهرة ممتعة عند آل دورانس؟

ـ رائعة حقاً. سيلين مضيفة ممتعة. ربما سترينها اليوم، فستأتي لرؤية العمة مادلون.

في العاشرة صباحاً وصلت الفتاة الفرنسية الى مزرعة آل سانتون، امضت حوالى نصف ساعة مع العمة، ثم وافت كاميليا وجوسلين في الساحة. كاميليا ممددة على كرسي طويل في ظلّ مظلة واسعة، تتصفح احدى المجلات، بينما جوسلين تستريح قليلا قبل ان تعاود اعمالها العديدة.

في الحال، بدأت كاميليا وسيلين تتحدثان عن آخر اختراعات الموضة النسائية، فدخلت جوسلين تعدّ لهما القهوة وتتساءل كيف بامكان الفتاة الفرنسية ان تتصرّف بلطف ومحبة مع كاميليا التي سرقت منها جان ـ مارك وتزوجته.

قالت سيلين لكاميليا:

ـ انا آسفة لأنك لا يمكنك المجيء لزيارتي، كي اريك ملابسي الجديدة.

هتفت كاميليا بفرح:

ـ لكنني سأكون مسرورة لزيارتك.

ـ صحيح. جيرفيه قال لي بأن المسافة في سيارة الجيب ستعرّضك للارهاق، وربما تتأذى صحة الجنين.

ـ هذا امر تافه. أنا ارغب من كل قلبي في زيارتك.

ـ اذن، لماذا لا تأتين في المساء لزيارتي بعدما يعود جان ـ مارك من عمله. سأريك كل ما اشتريت من باريس، وبامكان زوجك وابي ان يتحدثا معاً في سباق الثيران.

ـ هذا مشروع رائع، يا سيلين.

قالت جوسلين في الحال:

ـ هل تعتقدين ان هذا القرار مناسب لك، يا كاميليا. الطريق رجراجة، صدقيني.

ـ آه، لا أريد مشاكل، يا جوسلين. فجان ـ مارك سيقود السيارة على مهل.

قالت سيلين:

ـ وانت، يا آنسة بيشوب، تعالي معها.

لكن كاميليا تدخلت بسرعة وقالت:

ـ على جوسلين ان تبقى مع العمة، فلا يجب تركها وحدها، خاصة انني سمعت جيرفيه يقول بأنه ذاهب في المساء الى آلرز.

ـ آه، نعم... نسيت العمة مادلون.

نهضت جوسلين وقالت:

ـ المعذرة، عليّ ان اهتمّ بتحضير الغداء.

اعدت الفتاة حساء البصل، ثم تذوقته وفرحت لروعة طعمه اللذيذ. وبينما كانت تقطع شرحات الخبز تساءلت لماذا ابنة عمها اصرّت على ابعادها عن زيارة مزرعة آل دورانس.

عرّجت سيلين الى المطبخ في طريق ذهابها وقالت لجوسلين:

ـ آه، الحرّ شديد هنا. لا شك ان هذا العمل الذي تقومين به الآن مرهق، أليس كذلك؟

أجابت الفتاة الانكليزية بتواضع:

ـ لا بأس. لقد قيل لي بأن منزل والدك عصري، ومجهّز بكل الوسائل الحديثة الضرورية؟

ـ نعم. كل شيء فيه. لكن، انا لا انظف البيت ولا اعدّ الطعام.

ثم نظرت الى قدر الحساء وأضافت سائلة:

ـ وماذا هنا في داخل القدر؟

ـ حساء البصل.

ـ هل بامكاني تذوقه؟

ـ نعم، طبعاً.

ـ آه، انه رائع. قال جيرفيه بأن...

سعلت الفتاة كأن الحساء حرق حنجرتها لشدة سخونته ثم تابعت تقول:

ـ قال جيرفيه بأنك طباخة ماهرة.

ـ آه، صحيح؟

سمعت جوسلين العمة ترنّ جرسها، فهرعت اليها. ولما عادت الى المطبخ كانت سيلين قد ذهبت.

قبل موعد الغداء بقليل، جاءت كاميليا وقالت لابنة عمها:

ـ ستجعّدين شعري، يا جوسلين، اليوم بعد الظهر. فلا يمكنني الخروج هكذا.

قالت هذا الكلام بلهجة آمرة وولّت.

وعلى مائدة الغداء، كانت جوسلين آخر من سكب الحساء في

طبقه. جلست بفخر لتستمتع بهذه الوجبة الطيبة. لكن ما ان احتست الجرعة الاولى حتى تقلص جسمها. ولم تصدق، تناولت جرعة ثانية: طعم الحساء مقيت!

وضعت الملعقة جانباً ونظرت الى الرجال. لا أثر لأي تعبير استياء أو قرف على وجوههم، يأكلون بشهية كالعادة ولا يتذمرون من شيء. ثم التفتت نحو ابنة عمها التي كانت تتصنع الاحتساء. اشتبكت نظراتهما، فرمقتها المرأة بنظرات حانقة مما جعل جوسلين على وشك الانهيار وتمنّت لو باستطاعتها الاختفاء تحت الطاولة.

أخذت نفساً عميقاً وأعلنت تقول:

ـ سادتي، يجب ان أعتذر منكم. هذا الحساء لا يؤكل. فطعمه مقيت.

وضع الواحد تلو الآخر ملعقته على الطاولة من دون النظر اليها. بعضهم اكتفى بمضغ الخبز، والبعض الآخر، وضعوا فوقه زبدة. تعابير وجوههم غير واضحة.

نهضت جوسلين من مكانها وأضافت تقول:

ـ أنا آسفة... حقاً آسفة. بسرعة سأحضر لكم شيئاً آخر.

قال جيرفيه بصوت هادىء:

ـ لا ضرورة، يا صغيرتي. سنكتفي بأكل الخبز الطازج مع الجبنة.

رمقها بابتسامة حارّة، فتأثرت كثيراً وفرح قلبها.

ولما باتت كاميليا وحدها مع جوسلين، راحت تؤنبها قائلة:

ـ حقاً، يا جوسلين! لم يسبق ان انزعجت في حياتي مثل الآن. كيف باستطاعتك ان تفعلي شيئاً كهذا، انت الفتاة الشاطرة!؟

ـ آسفة. لم أفعل ذلك عن قصد. حتى الآن لم أفهم ماذا جرى.

ـ انه الصابون، طبعاً. كيف بامكانك ان تكوني غافلة، طائشة، الى هذه الدرجة؟

ـ صابون؟ مستحيل! كيف يقع الصابون في الحساء؟

ـ هذا ما أحب معرفته. لا شك انك كنت ساهية ووضعت منه بدل الزبدة. بأي تفسير آخر يمكنك ان تبرري غلطتك؟

ـ لكنني من النوع الذي ينتبه كثيراً، ولا أسهو أبداً.

ـ يا ابنتي العزيزة، لا ضرورة لمتابعة هذا الحوار. في الحساء صابون وهذا كل ما في الأمر. هل سكبت من الحساء للسيدة سانتون؟

ـ كلا. أطعمتها عجة بالفطر.

ـ لا شك اذن بأن جيرفيه سيخبرها بما حصل. لحسن حظك ان الصابون ليس مادة خطرة. لكن، مع ذلك، سيمرض بعض الرجال، خاصة الذين تناولوا كل شيء.

ذعرت جوسلين وقالت لابنة عمها:

ـ آه، لا! هل تعتقدين ذلك؟

ـ لن افاجأ بالأمر. أشعر الآن بألم حاد في رأسي. سأرتاح نصف ساعة، وبعدها تجعّدين شعري.

بينما كانت الفتاة تجلي الصحون لم تكف لحظة واحدة عن التفكير بما حدث، علّها تجد تفسيراً لوجود الصابون في الحساء. افرغت محتوى القدر في برميل القمامة وصعقت حين وجدت في قعره فتيلة شمعة: «آه، الشموع موضوعة في خزانة المونة، وأنا لم افتحها منذ البارحة». اطرقت الفتاة تقول لنفسها: اذن، ما حدث ناتج عن تخطيط مسبق. لكن من؟ ولماذا؟

الجواب الأول الذي خطر لها: السيدة سانتون... لكن،

صحيح بأن العجوز امرأة عنيدة وصلبة، لكنها ليست شريرة الى هذا الحدّ. ولو ان العمة هي التي وضعت الشمعة في الحساء، لفعلت ذلك في الصباح الباكر، عندما كانت الفتاة تنظف البيت. في الساعة الحادية عشرة، كان الحساء لذيذاً لقد ذاقته، وكذلك سيلين...

سيلين! ربما هي التي فعلت ذلك. كانت في المطبخ عندما قرعت العجوز. ولما عادت جوسلين الى المطبخ، كانت سيلين قد اختفت. تكفي ثوان معدودة لجلب شمعة من خزانة المؤن ووضعها في الحساء.

لكن، كيف تمكنت سيلين من معرفة مكان وجود الشموع، هي التي تأتي الى المزرعة نادراً جداً؟ لأي سبب فعلت ذلك؟ للمزاح والنكتة؟

كانت جوسلين ما تزال تبحث عن مفتاح السرّ عندما رأت جيرفيه عائداً على حصانه. دخل المطبخ وسأل:

ـ اين كاميليا؟ الا يمكنها مساعدتك في تنشيف الصحون؟

ـ تعاني من ألم حاد في الرأس، وترتاح في الوقت الحاضر.

سحبت الفتاة يديها من ماء الجلي، ثم نشفتهما. لقد نسيت ان ترتدي القفازين البلاستيكيين الجديدين، فبدت يداها حمراوين متنفختين.

ـ وانت أيضاً بحاجة الى الراحة. يجب ان تمضي فترة القيلولة في سريرك. لم تخلدي الى النوم البارحة الا خمس ساعات وهذا لا يكفي. اتركي كل شيء الآن، واذهبي الى غرفتك. تنشفين الصحون فيما بعد.

ـ كلا، وعدتُ كاميليا ان اجعّد شعرها. ستذهب في المساء الى مزرعة آل دورانس مع جان- مارك. في كل حال، أنا لا

أشعر بالتعب.

كانت تكذب طبعاً، وبينما راحت تمد يدها لجلب منشفة الصحون، امسك جيرفيه معصمها وهزّ رأسه وقال:

ـ ستذهبين الى غرفتك الآن وترتاحين، يا ابنتي. تبّا لكاميليا ولشعرها. آه، ماذا هنا؟ جرحت اصبعك؟

من دون ان يتركها، جذبها الى كرسي قرب الطاولة وقال:

ـ اجلسي. سأضع فوق الجرح دواء مطهّراً، ثم لصقة وقائية.

ادركت جوسلين في الحال انه من الأفضل لها عدم معارضته والاّ جرّها الى غرفتها. قال:

ـ اذن، كاميليا ذاهبة في المساء لزيارة مزرعة آل دورانس! انا غير موافق لكن لا استطيع منعها اذا كان زوجها موافقاً. هل دعتك سيلين لزيارتها أيضاً؟

ـ نعم، لكنني رفضت. انت ذاهب الى المدينة، أليس كذلك؟ وأنا سأبقى قرب العمة وأنام باكراً.

ذهب جيرفيه ليجلب ما يحتاج لتضميد جرح أصبع الفتاة، ثم عاد وتقدم منها وقال:

ـ يداك لم تكونا على هذه الحال لدى وصولك الى هنا. ألست نادمة على قبولك العمل مكان العمة؟

احمرّ وجه الفتاة، فأشاحته وقالت:

ـ هل تحاول اقناعي بأنك على حق، وبانني مخطئة؟ خاصة بعد حادثة الغداء...

ـ آه، نعم... الحساء...

فضلت عدم النظر اليه كي لا تعرف قصده. تشعر دائماً بالانزعاج قربه وخصوصاً اليوم، لأن اعصابها متوترة جداً. قالت

بصوت متقلص:

ـ كنت لطيفاً في تصرّفك معي، بعد الحادثة. وفي كل حال، لم تكن مخطئاً حيالي.

سألها بجفاف:

ـ وهل رأيي يهمك؟ تصورت بأنك لا تبالين بما أقول وأفكر.

نظرت اليه أخيراً ورأت في عينيه بريقاً يقطع الانفاس. لم يتسن لها الوقت للردّ عليه، لأن كاميليا دخلت في هذه الاثناء الى المطبخ وقالت:

ـ اشعر الآن بتحسن، يا جوسلين. هل انت مستعدة لتجعيد شعري؟

قال جيرفيه بسرعة:

ـ للأسف جوسلين تعاني من الم حاد في الرأس وامرتها ان ترتاح حوالى ساعتين.

بدأت كاميليا تقول:

ـ لكن، وشعري...

قاطعها بخشونة وقال:

ـ شعرك يستطيع الانتظار، يا سيدة.

ثم تأبط ذراع الفتاة ورافقها حتى الغرفة، وقال لها:

ـ لا تحاولي الخروج. سأكون في المنزل وسأسمعك.

ثم ادار ظهره وذهب.

بقيت جوسلين ممددة في غرفتها المعتمة طول ساعات الظهر الحارة. لكنها لم تنم لحظة. لا تفكر بشيء، لا بالحساء المقيت، ولا بتجعيد شعر ابنة عمها، ولا بالكوي غير المنتهي، ولا بتحضير العشاء... بدت لها كل هذه الأمور من غير أية أهمية اطلاقاً. لا

يهمها سوى شيء واحد: اكتشافها الرهيب بأنها وقعت في حب جيرفيه سانتون.

حوالى الرابعة، نهضت جوسلين من سريرها، اغتسلت وارتدت ملابس نظيفة ثم خرجت الى المطبخ، حيث وجدت كلمة تقول:

ـ لقد اوكلت شخصاً لزيارة عمتي في المساء والمكوث قربها، فانت اذن حرّة لزيارة مزرعة آل دورانس، اذا كنت ترغبين ذلك.

لا توقيع على الرسالة، لكنها ليست غبية لتعرف بأنها صادرة عن جيرفيه نفسه.

لما حملت جوسلين القهوة لابنة عمها، قالت لها هذه الأخيرة بوجه عابس:

ـ اذن، تشعرين الآن بتحسن؟

ـ نعم، شكراً. هل ذهب جيرفيه الى مدينة آلرز؟

ـ نعم. كما وجد من يبقى مع عمته. فبامكانك المجيء معنا، اذا كنت ترغبين بذلك.

ـ كلا، لن آتي. لا شيء يهمني في هذه الزيارة.

هزت كاميليا كتفيها وقالت:

ـ كما تريدين.

كانت المرأة غاضبة بسبب شعرها، لكنها لانت عندما اقترحت عليها ابنة عمها ان تجعده لها على الناشف. ولما عاد جان ـ مارك من عمله، كانت زوجته جاهزة، متألقة، وبمزاج رائع.

حوالى الثامنة، انتهى العشاء، فغسلت جوسلين الصحون كالعادة، ثم خرجت في سيرها الاعتيادي نحو الساقية، بينما كانت زوجة احد الحراس تثرثر مع العمة. راحت تتأمل السهل الواسع، الممتد أمامها محروقاً بالشمس اللاهبة.

فجأة فكرت بانفعال مفاجىء: «ربما جيرفيه يعود باكراً!».

ثم قالت الناحية المدركة في دماغها: «لا تكوني حمقاء. اذا بدأت منذ الآن التفكير والحلم به، ستخسرين نفسك! الأفضل عدم التفكير به اطلاقاً. ليس هذا ما يسمونه «الحب»، يا ايتها الحمقاء، انما ميل فاتن، فقط لا غير».

وبينما كانت منغمسة في افكارها، لم تسمع رفاييل يقترب منها. فحين لمس ذراعها، انتفضت، فقال لها:

ـ لم اكن اقصد اخافتك. انما كنت اتساءل اذا...

توقف عن متابعة الكلام، منزعجاً، خجولاً. نظرت اليه الفتاة نظرة مشجعة، فأضاف يقول:

ـ ... اذا كنت تحبين ان تأتي للسباحة، يا آنسة؟

ـ لكن، اين؟

ـ في البحر. انه لا يبعد من هنا سوى كيلومترات قليلة. في دراجتي النارية، نصل بسرعة. لكن، ربما لا تحبين البحر؟

ـ آه، بلى، بالعكس.

ـ اذن، هل تأتين؟

ترددت جوسلين. لديها الكوي غير المنتهي. لكنها بحاجة الى تمويه عقلها. فالسهرة على شاطىء البحر شيء مريح، سيسمح لها بالنوم جيداً، خاصة اذا سبحت حتى التعب. ثم اجابت:

ـ سأكون مسرورة جداً بمرافقتك، يا رفاييل. انتظرني.

لم تسألها السيدة سانتون الاّ عن موعد عودتها، عندما اخبرتها الفتاة عن رحلة البحر. فارتدت قميصاً قطنياً فوق سروال الجينز ووضعت بزة السباحة في منشفة، ولم تنس ان تأخذ معها كنزة.

كان رفاييل ينتظرها على دراجته النارية. بعدما تأكد من جلوسها

المريح وراءه، ادار المحرك، ثم قال لها بصوت عال:

ـ تمسكي جيداً، يا آنسة.

وضعت الفتاة ذراعيها حول خصره وتنفست عطره الناعم، ثم تذكرت تحذيرات جيرفيه: اذا كنت لطيفة، سيظن بأنك تريدين مغازلته. انه رجل... وانت، بالنسبة اليه، امرأة.

www.elromancia.com

٥ ـ وكان لا بد لها ان تشهد الجانب العنيف من حياة الكامارغ فبعد وقت لطيف على الشاطىء جاء العراك وبعد العراك جاءت البصّارة. . .

قبل التاسعة وصلا الى الشاطىء. النهار ما زال ساطعاً مع ان الشمس بدأت تختفي وراء الافق. المكان رائع ولا احد في الجوار. ارتدت جوسلين بزة السباحة وراء شجرة صغيرة، ثم وافت رفاييل الى البحر. لعبا معاً في الماء الدافئة، الشفافة لمدة نصف ساعة، ولما عادا الى الشاطىء الرملي، كانت جوسلين قد استعادت حيويتها، فارتمت فوق منشفتها وقالت:

ـ آه، انها الجنة!

جلس رفاييل قربها على منشفته، ثم انتشل من كيس صغير لوح شوكولاته وناولها اياه، فقالت له:

ـ آه، رائع! انا جائعة حقاً. وكان يجب عليّ ان اتذكر وأجلب

بعض الخبز على الأقل.

قطعت لوح الشوكولاته نصفين وناولته جزءاً ، فقال لها:

ـ كلا، اللوح كله لك. انا سأدخن سيكارة.

بقيا صامتين قليلاً، الفتاة تقضم بشهية وتتأمل الأمواج تصفق على الرمل، والشاب ممدد على ظهره، مغمض العينين، يدخن سيكارته بكسل. نسيت الفتاة وجوده كلياً، عندما نهض فجأة وسألها:

ـ هل لديك صديق في انكلترا، يا جوسلين؟

اجابت وهي تنظر الى البحر قلقة:

ـ انا لست مخطوبة لأحد، اذا كان هذا ما تريد معرفته.

ـ لكن، هل هناك رجل تحبينه كثيراً وتفضلينه عن الآخرين؟ تذكرت طوم، لو لم تسافر لربما عقدا خطبتهما؟ طوم العزيز. . . اللطيف. . . الواثق من نفسه. . . ربما لقيت السعادة معه. . . لو لم تأت الى فرنسا.

اجابت الفتاة:

ـ كلا، كلا، لا احد.

اطفأ رفاييل سيكارته وقال:

ـ انا، تعرفت على العديد من الفتيات، لكن لم يحصل شيء جدي حتى الآن. في كل حال، لا انوي الزواج قبل ان ابلغ الثلاثين من عمري، على الأقل.

نظرت اليه مبتسمة وقالت:

ـ اذا انتظرت حتى ذلك الوقت، ربما انقرضت الفتيات الجميلات! يقال ان بنات مدينة آلرز رائعات الجمال، اليس كذلك؟

ـ آه، نعم. . . عندما يكنّ شابات فقط. . . اذ سرعان

ما يصبحن سمينات، شرسات، كلما كبرن في السن. لكنك انت وابنة عمك تختلفان عن بنات بلادنا.

- ماذا تعني؟

- اعني بأن بنات بلادنا متى تزوجن، يتوقفن عن الاهتمام بأنفسهن.

- لو كنا ، ابنة عمي وأنا، نعمل بقسوة مثل نساء الحراس، لما وجدنا، مثلهن، الوقت للاعتناء بأنفسنا. في كل حال، انت ايضاً، لن تبقى شاباً وسيماً الى الأبد. ذات يوم ستنتفخ وستشيخ وستفقد وسامتك ونضارتك.

ضحك وقال:

- ربما. لكن انت، ستظلين جميلة دائماً.

ضحكت الفتاة ولم تعرف تماماً كيف تنظر الى الوضع الحالي. هل يتكلم رفاييل هكذا مع كل الفتيات؟ فأجابته غير مبالية:

- شكراً لهذا المديح. لكن، قل لي، ما رأي الحراس بزواج جان - مارك من فتاة اجنبية؟

- يقولون عنه بأنه محظوظ. آه، هل قيل لك بأن السيدة سانتون كانت تأمل من جان - مارك ان يتزوج الآنسة دورانس؟

- نعم. هل هذه الأقاويل خاطئة؟

- كلا، كلا، انها صحيحة. قبل ان يسافر جان - مارك الى باريس، كان يبدو عليه انه سيوافق على قبول هذا الزواج. لكنه وجد صعوبة في الحصول عليها، لأنها فتاة فظة، لا تريده هو، انما تريد الزواج من المعلم الكبير.

قالت جوسلين باضطراب ودهشة:

- من جيرفيه؟

- لا تعرفين ذلك بعد؟! انه الموضوع الأكثر تسلية في احاديث المنطقة: هل تحصل عليه ام لا؟

- وحسب رأيك، ماذا سيحدث؟

- آه، سيستسلم لها جيرفيه في نهاية المطاف. انها فتاة جميلة، جذابة، وتملك مهراً ضخماً. يعرف المعلم كيف يسيطر عليها. الثيران، الأحصنة، النساء... شيء واحد بالنسبة اليه. الفتاة اللطيفة، السلسة ، الطيعة، لا تناسبه ابداً...

حلّ الليل والرمل ما يزال ساخناً. لكن جوسلين اخذت ترتجف برداً، فقالت:

- لماذا اذاً، لا يطلب جيرفيه يدها؟ ماذا ينتظر؟

- جيرفيه لا يريد الزواج الا من اجل انجاب اولاد يرثونه ويحلون مكانه فيما بعد. رجل مثله ليس بحاجة الى خاتم في جيبه ليركّع الفتيات امامه.

نهضت جوسلين وقالت:

- سأرتدي ملابسي.

ثم عادت الى رفاييل الذي كان يسرّح شعره بتأن. فقال لها:

- آسف لأنني حدثتك بهذه اللهجة وهذه الصراحة. ليس في نيتي ان اصدمك. انما هذه هي الحقيقة في بلادنا.

لم تنهض الفتاة بسبب كلام رفاييل، انما لتخيّلها صورة جيرفيه، الرجل العازب، المحنّك، الذي يريد زوجة له، فقط، كي يستمر نسله.

اجابت جوسلين بهدوء:

- لا اهمية لذلك، يا رفاييل.

لما صعدا الى الدراجة النارية، اقترح الشاب قائلاً:

ـ هناك مقهى صغير في طريقنا، باستطاعتنا التوقف عنده واحتساء القهوة.

المقهى بناء منعزل وقديم. امامه توقفت الشاحنات والأحصنة المربوطة بالحاجز وقافلة غجر. اشار رفاييل برأسه الى القافلة وقال:

ـ الغجر!

في تلك الأثناء سمعا عزف قيثارة داخل المقهى، فاختفى ضجيج الأصوات والضحكات وبدأ الناس يغنون ويصفقون مع ايقاع الموسيقى. كانت الصالة تعجّ بالناس. امسك الشاب يد جوسلين وسارا معاً نحو احدى الزوايا، ثم هتف لأحد الحراس فنهض الحارس وأعطى مكانه للفتاة، ابتسمت له جوسلين وقالت:

ـ شكراً، يا سيد، شكراً.

انحنى الحارس مبتسماً، ثم ابتعد. طلب رفاييل من الخادم احضار القهوة. وبينما كان احد الغجر يعزف على الكمان، راحت امرأة عجوز تمر بين الطاولات طالبة من الزبائن كشف بختهم.

بعد قليل لاحظت الفتاة مجموعة رجال غرباء عن المنطقة، جالسين حول طاولة يحتسون المشروبات. فجأة لمحت احد رجال هذه المجموعة يشير اليها بيده، فاحمرّت وأزاحت وجهها. اخبرها رفاييل، بعد ان رمق الرجل بنظرات حقد، بأن هؤلاء الرجال من عمال حقول الأرز. فتذكرت ما اخبرها به جان ـ مارك عن المشاجرات التي تحصل عادة بين حراس الماشية وهؤلاء العمال.

فبعد الحرب، جرى تخصيص قسم كبير من اراضي منطقة الكامارغ لزراعة الأرز، فخاف اصحاب الماشية وحراسها ان يتسع هذا القسم بمرور الزمن، على حساب مراعي القطعان، خاصة ان العمال النازحين يختلفون كلياً عن الحراس المحافظين، الفخورين

بأرضهم ومنطقتهم. وهذا الخوف ما زال مسيطراً على المنطقة.

نظرت جوسلين الى ساعة يدها وفوجئت بتأخرها. الساعة تشير الى العاشرة والنصف، بينما وعدت السيدة سانتون في العودة الى المزرعة قبل العاشرة فطلبت من رفاييل الذهاب فوراً. وبينما كان الشاب يدفع الفاتورة، تقدم احد العمال من الفتاة وانحنى وقال لها شيئاً لم تفهم معناه.

لكن رفاييل سمع ما قاله العامل، فارتسم الغضب على وجهه وأمر الرجل بترك جوسلين وشأنها. وما حدث بعد ذلك كان بمثابة كابوس بالنسبة اليها. عمّ الصمت ارجاء المكان، وحدقت العيون بالشاب والعامل.

خرج رفاييل الى خارج المقهى وتبعه العامل، وبدأت المعركة بينهما. لم يسبق للفتاة ان رأت مشاجرة حية بالأيدي من قبل. الحقيقة القاسية اغثتها، فراحت تصرخ وتقول لصاحب المقهى:

ـ آه، ارجوك... اوقفهما! ارجوك!

لكنه كان يهز كتفيه ورأسه ويقول:

ـ عراك كهذا يتكرر باستمرار ومن الأفضل عدم التدخل.

خلال الدقائق الأولى، ظل العراك مناصفاً. صحيح ان العامل اضخم جثة من رفاييل، لكنه اقل منه بنية جسدية. احتد العراك واحيطت حلبة المصارعة بدائرة من الزبائن المتحمسين لمعرفة نتيجة العراك. فجأة، توقفت سيارة جيب على بعد امتار قليلة من حلقة المشاهدين، نزل منها جيرفيه وتقدم داخل الحلبة. فرح قلب جوسلين لدى رؤيته، ولو لم تكن محاطة بالغجر، لأسرعت اليه.

اطلقت زفرة ارتياح عندما رأته يدفع رفاييل جانباً ثم امسك بخصر العامل الذي حاول التخبط بشدة، لكنه وقع ارضاً بدوره.

رفع جيرفيه نظره الى الجمهور ولمح بعض رفاقه، فقال آمراً:

ـ خذوه من هنا.

ثم رأى جوسلين، فاتجه نحوها بوجه غاضب وحاقد، ثم امسكها من ذراعها بشدة وجرها الى سيارته، بينما كانت تردد بتلعثم قائلة:

ـ لكن... لكن رفاييل؟

لم يرد عليها، بل دفعها الى داخل السيارة ثم صعد الى مكانه واقلع في غيمة غبار كثيفة. بصعوبة تمكنت الفتاة من السيطرة على ارتجاف جسمها وتوترها العصبي لكنها ظلت تخشى المشهد الذي سيلي.

عندما وصلا الى المزرعة، كانت عينا جيرفيه قد فقدتا بريقهما التهديدي، انما فمه ظل متقلصاً. وبصوته العادي الهادىء، قال:

ـ اذهبي الى فراشك. سأعيد زوجة الحارس الى منزلها...

نظرت اليه الفتاة بذعر، ومن غرفتها سمعت محرك الجيب يقلع. وبعد قليل وصل جان ـ مارك وكاميليا. ولما تأكدت من ان الزوجين ناما، نزلت الى المطبخ لتعد لنفسها فنجان قهوة علها تستعيد نشاطها. لن تستطيع النوم قبل ان تتحدث الى جيرفيه وتبرر موقف رفاييل.

لكن عندما سمعت اصوات خطوات تتقدم من الباب الخلفي، كادت ان تفقد رباطة جأشها وتفر، ولما رآها جيرفيه جالسة امام الطاولة، قطّب حاجبيه وقال:

ـ هذه انت... الم اقل لك ان تذهبي الى فراشك؟

بلعت الفتاة ريقها وأجابت:

ـ عليّ ان احدثك... ان اشرح لك ما جرى.

ـ بامكانك مناقشة ذلك غداً صباحاً. الساعة تشير الى منتصف

الليل ولا اريد ازعاج الآخرين.

ـ آه، ارجوك... لا استطيع ان انام قبل ان احدثك. انت غاضب، اعرف ذلك. اسمعني، ارجوك. لن اطيل الحديث.

ـ حسناً. ما دمت تصرين. لكنني اتكهن بما حدث. انه رفاييل الأحمق. لا مكان له في مزرعتي بعد الآن. عليه ان يبحث عن عملٍ في مكان آخر.

ـ هل يعني بأنك ستطرده؟

ـ نعم. لقد سبق وأنذرته مراراً. واذا كان يفضل عدم اطاعتي، فعليه ان يتحمل عواقب ذلك.

ـ لكن، ليس من العدل طرده... لم تكن غلطته. لو... لو كنت انت هناك ايضاً، لتشاجرت مع هذا العامل الحقير. لقد عاركته في كل حال.

ـ ضربته لأنها الطريقة الوحيدة لوضع حد نهائي للعراك. انما انا اعارض الرد على التحديات. العنف لا يؤدي الى شيء.

خلع سترته الجلدية وقال:

ـ اهالي منطقة الكامارغ يخافون جميعاً امتداد حقول الأرز. لكن العراك لا فائدة منه. اذا كان رفاييل لا يستطيع رؤية احد هؤلاء العمال من دون ان يجن جنونه، فهو اذن بحاجة الى درس جيد.

قالت محتجة:

ـ انت لا تفهم. كانت الغلطة غلطتي انا. لقد تشاجرا بسببي انا.

تقلص حنقه وسألها بجفاف:

ـ ماذا تقصدين؟

ـ قال لي العامل شيئاً لم افهمه، فطلب منه رفاييل الابتعاد، فأجابه

العامل بأنه لن يبتعد الا بالقوة. حتى انت، كنت رديت على هذا التحدي اليس كذلك؟

لمعت عينا جيرفيه وقال:

ـ ما كان عليه ان يصطحبك الى هذا المكان، في بادىء الأمر.

ـ لكن معظم زبائن هذا المقهى من حراس الماشية وأنا اعرف ان اخلاقهم رفيعة وتصرفاتهم مدروسة.

ـ ليس هذا ما اقصده. لكن الظاهر نسيت بأنني نصحتك عدم معاشرة رفاييل.

ـ لا، بل اتذكر تماماً. انت مخطىء بحقه. لقد امضيت معه سهرة رائعة، الى ان وصلنا الى المقهى.

امسكها جيرفيه بكتفيها بعنف وقال بخشونة:

ـ آه صحيح! لكن هذا لن يتكرر... وأصر على ذلك. ما دمت تعيشين تحت سقفي، فستحترمين رغباتي، يا صغيرة. والآن، الى فراشك. القضية انتهت وأقفل الموضوع. ولا اريدك ان تحدثيني بهذا بعد الآن، اطلاقاً.

ثم خرج واختفى في الظلام.

لا جيرفيه ولا رفاييل ظهرا على مائدة الفطور صباح اليوم التالي، ولم تتجرأ جوسلين ان تسأل الحراس ان كان رفاييل قد عاد الى المزرعة مساء امس، وكانت تخشى ان تلاحظ كاميليا ملامح الأرق في عينيها المرهقتين بعد ليلة بيضاء، لكن المرأة كانت منهمكة بالحديث عن مزرعة آل دورانس ولم تلاحظ وجه الفتاة الشاحب وجفنيها الحمراوين. انما كانت تقول:

ـ انها حقاً مزرعة رائعة، يا جوسلين. لو كان الأمر مشابهاً هنا، لقبلت العيش بكل سرور. لكن هذا المكان بحاجة الى انسان ذواقة

ومرهف كي يصبح جنة وروعة.

ـ وهذا المكان بحاجة الى المال ليصبح ما تحلمين به يا كاميليا.

ـ جيرفيه يملك المال. ويملك ايضاً افضل ثيران المنطقة. لا شك انه مرتاح من الناحية المادية، مع انه لا يبدو هكذا. الله وحده يعرف ماذا يفعل جيرفيه بأمواله الطائلة. حتى جان ـ مارك نفسه لا يفهم لماذا اخوه اقتصادي الى هذه الدرجة.

سألت جوسلين لتغيّر الحديث:

ـ هل سيلين الفتاة الوحيدة لوالديها؟ اليس لها اخ؟

ـ انها وحيدة. والدها تجاوز الستين من عمره، ولا شك انه تزوج في سن متأخرة. انه رجل لطيف جداً.. وذكّرني بالممثل المشهور، موريس شوفالييه. لكن للأسف، اصيب العام الماضي بذبحة قلبية، وسيلين قلقة على صحته كثيراً.

وقالت جوسلين لنفسها: «لا تملك سيلين، الجمال والمهر، وحسب، انما ذات يوم، ستملك مزرعة والدها كلها. لهذا السبب لا يريد جيرفيه ان يصرف فلساً واحداً على مزرعته».

شعرت بالاشمئزاز والقرف... ليس تجاهه، بل تجاه نفسها، لمجرد تصوره قادراً على مشاريع حقيرة كهذه.

ثم قالت لنفسها بخجل: «لو كنت احبه حقاً، لما فكرت هكذا. بل لكنت وثقت به وآمنت به وصدقته. واذا كان هذا الشعور الداخلي ليس حباً، لماذا اتعذب الى هذه الدرجة؟ لماذا تبدو حياتي بلبلة حقيقية؟ لماذا وصل بي الأمر ان اخشى العودة الى انكلترا؟».

خلال فترة الصباح، اصرّت العجوز ان تنهض من سريرها، مع العلم انها لم تشف بعد نهائياً. لكن جوسلين اصرت على المواصلة في القيام بالأعمال المنزلية الصعبة، فقالت لها العمة:

- انت فتاة طيبة، يا جوسلين. لدى وصولك الى هنا، لم انظر اليك نظرة جيدة، بعدما رأيت ملابسك الأنيقة والطلاء على اظافرك. لكنك برهنت بأنك فتاة مسؤولة وستصبحين في المستقبل امرأة قادرة. يا للأسف، فكاميليا لا تشبهك!

اجابت الفتاة بهدوء:

- انها تحب ابن اخوك وتحمل ولده. ليس مجرد ان تتقن الزوجة الطهي، تكون زوجة جيدة، يا سيدتي.

زمت العجوز شفتيها وقالت:

- ربما. لكن واجب المرأة ان تطعم زوجها وتغذيه جيداً. عندما كانا يسكنان في مدينة آلرز، كان جان - مارك رجلاً جائعاً. فهو ليس مثل جيرفيه بصحة متينة. انه سريع العطب منذ صغره. حتى السابعة من عمره، كان يعاني من الربو امضيت الليالي الطويلة اسهر عليه. احياناً كان يصبح ازرق حتى الموت. سأريك احدى صوره.

تناولت العمة صورة من دولابها وقالت وهي تشير الى الرجل الضخم فيها:

- هذا هو زوجي!

كانت العمة في الصورة جالسة على كرسي، تلف ذراعها حول كتف صبي يتكىء عليها.

- وهذا هو جان-مارك. اترين كم هو نحيل. كان في العاشرة من عمره، بينما يبدو في الحقيقة في السادسة.

لكن جوسلين كانت تنظر الى وجه الصبي الأكبر الواقف قربه. وتساءلت لنفسها: «لماذا لم تضع العمة ذراعها الثانية حول كتفه، بينما هو متروك على حدة، عابس وعدائي؟ بسبب جان - مارك ومرضه، لم تجد له وقتاً؟ هل قساوته ناتجة عن نقص في الحنان؟».

وبينما كانت جوسلين تكنس تحت سريرها، لمحت ظلاً وراء نافذتها، فصرخت مندهشة:

- رفاييل! آه، رفاييل، يا لوجهك المسكين!

- لقد رأيت اسوأ من ذلك، يا آنسة.

ثم قال بصوت منخفض:

- ذهبت الى المطبخ لأتحدث معك، فرأيت العجوز. انا آسف لما حدث مساء امس. لا شك انك غاضبة مني. لكنني لم اتحمل اهانة العامل لك وشتيمته الكبيرة.

- انا لا الومك، يا رفاييل. لكن جيرفيه غاضب جداً. هل رأيته؟

- نعم. اخرجني من السرير قبل الفجر. وقال لي، بانه، في المرة المقبلة، اذا حصل معي شيء مماثل، فسيطردني نهائياً من دون اي تردد.

- لكنه قال لي في الأمس بأنه سيطردك اليوم نهائياً.

- آه، صحيح؟ ربما غيّر رأيه في الليل. انه سريع الغضب حيال من لا يطيعه. وهو في الوقت نفسه رجل صادق. لقد سمح لي ان اشرح له ما حدث، اذا اقترب مني احد، عليّ ان اتحاشاه وابتعد. كما امرني ايضاً الّا اوجه اليك الكلام ابداً.

اختفى رفاييل من وراء النافذة حين دخلت كاميليا الى غرفة جوسلين. وما ان انتهت الفتاة من تنظيف غرفتها، توجهت لتنظيف غرفة جيرفيه، الغرفة الوحيدة التي تجاهلت الاعتناء بها منذ ان حلت مكان العمة. وها هي تدخلها للمرة الأولى، بالحاح، علّها تجد فيها تفسيراً لشخصيته المحيرة.

كانت الغرفة تحتوي على سرير ضيق يقع تحت احدى النوافذ. احد جدرانها مليء بالكتب وبعض صور الخيول والقطعان.

على الجدار المواجه، تعلقت لوحة زيتية تمثل قطيع احصنة بيضاء تجتاز فوق مستنقع صغير. لم تكن الغرفة وسخة ابداً. والظاهر انه يحافظ على نظافتها بنفسه. كما لاحظت الفتاة بأن الرجل يجيد تقطيب الأزرار ورتق ملابسه وتصليحها.

فجأة لفتت نظرها صورتان، على طاولة قرب السرير. الأولى تمثل زوجين متعانقين: الرجل يشبه جيرفيه والمرأة تشبه جان ـ مارك. عرفت في الحال انها صورة والديه. اما الصورة الثانية كانت تمثل سيلين دورانس، وهي واقفة قرب نافذة، ترتدي ثوباً اسود، ضيقاً، يظهر كل تفاصيل جسمها وقامتها الجميلة. تبدو ناعمة، بعينيها الثاقبتين وابتسامتها الساخرة.

«ربما يحبها جيرفيه حقاً. ربما لم يطلب يدها بعد لاعتقاده بانها ما تزال تحب اخاه. هل يجهل بأنها لم تكن تحب جان ـ مارك، انما تحبه هو؟ اليست هذه الصورة برهاناً لحب جيرفيه؟»

وضعت الفتاة الصورتين مكانهما لدى سماعها خطوات في الممر. لكن جيرفيه ظهر على عتبة باب غرفته قبل ان تتمكن من جمع معدات التنظيف والخروج. بدا منزعجاً لرؤيتها داخل غرفته، فأحمر وجه الفتاة. قال لها:

ـ لست بحاجة لتنظيف غرفتي. فأنا افضل ان انظفها بنفسي. لا احب رؤية اغراضي في غير محلها.

ـ آسفة جداً، لم اكن اعرف ذلك. لم المس شيئاً على كل حال.

كان يمسك باب الغرفة مفتوحاً وينتظر رحيلها، لكنها همست تقول:

ـ اشكرك لأنك غيّرت رأيك بما يختص برفاييل.

ـ هل تحدثت معه؟

كذبت وقالت:

ـ كلا، لكنني رأيته من نافذة المطبخ، وأدركت بأنك غيّرت رأيك.

ـ هل هذا يهمك الى هذه الدرجة؟

ـ كنت انزعجت كثيراً لو خسر رفاييل وظيفته بسببي.

ـ آمل ان تحتفظي بسرية اكبر في المستقبل.

ثم اغلق الباب وراءها.

في المساء، حمل جان ـ مارك رسالة الى جوسلين من الطبيب بيشوب، يقول فيها:

«عزيزتي جوسلين،

بعد تفكير عميق، لم ار مانعاً من بقائك مع كاميليا حتى مولد الطفل، أو لشهر اضافي ايضاً، الى ان تستعيد عافيتها ونشاطها. لقد اشتقنا جميعنا اليك كثيراً. لكن، ما دمت لم تتخذي قراراً بعد بخصوص مستقبلك، فلماذا لا تغتنمي فرصة وجودك في فرنسا وتحسني لغتك الفرنسية؟ هذا سيساعدك على الحصول على وظيفة مهمة لدى عودتك. اعتقد بأنك صرفت كل مالك، لذلك ارسل اليك هنا طيه بعض الشيكات...».

وتحتوي بقية الرسالة على اخبار الوطن والبيت والقرية، وعلى كلمة من اليزابيت، زوجة والدها الجديدة. ولما قرأت جوسلين هذه الرسالة امام ابنة عمها، قالت لها كاميليا:

ـ هل رأيت؟ والدك يرى بأن عليك البقاء معي حتى آخر المطاف.

ـ نعم، رأيت. لكن، ربما عائلة زوجك تفكر بطريقة مختلفة. تذكري بأنني ضيفة عندهم.

ـ لا يجرؤ احد على طردك من هنا، بعد كل الذي فعلته

من اجلهم.

- لم يطلبوا مني شيئاً. انا قدمت خدماتي، بملء ارادتي وبطيبة خاطري.

- كما وفرت عليهم كثيراً. لولاك لاستخدموا امرأة غيرك ودفعوا لها اجرة خدماتها. اذن، عديني ان تبقي شهراً على الأقل، بعد ولادة الطفل.

- حسناً، اعدك. اذا ليس لعائلة سانتون مانعاً بذلك.

بعد الحديث مع جوسلين، قالت السيدة سانتون بحماس:

- سأكون مسرورة جداً اذا بقيت، يا ابنتي. انا بحاجة لمساعدتك عند ولادة الطفل. فأنا لم اعد شابة وهناك غسيل كثير... احياناً افكر بفارغ الصبر باليوم الذي يتزوج فيه جيرفيه ويجلب لنا زوجة تأخذ عني كل هذه المسؤوليات. لقد عشت حياة قاسية وأرغب في الراحة قبل ان اموت.

هذه الكلمات شجعت جوسلين على السؤال:

- لماذا لا تجلبين محركاً كهربائياً، يا سيدتي؟ بواسطته ستخف اعمالك.

- غالباً ما نصحني جيرفيه بذلك، لكنني كنت اتدبر امري من دونه. ومنذ اربعين سنة وأنا اعيش بلا كهرباء. الآن اصبحت عجوزاً ولا استطيع تغيير عاداتي. طبعاً ستحصل تغييرات عديدة متى تزوج جيرفيه، لكن في الوقت الحاضر افضل التعامل مع الوسائل والمعدات التقليدية. جيرفيه يصرف اموالاً كثيرة ولا يريد الاعتراف بذلك. لكنني اعرف بأنه دفع مصاريف المستشفى لمعالجة طفل آل لورانس المعاق، وما زال يعيل ارملة هنري لوماتر، ويدفع مصاريف الدراسة الموسيقية لابنها في باريس. انا مقتنعة بأن جيرفيه يبالغ كثيراً

بكرمه الحاتمي، لكنه يرفض ان يصغي الي. انه تماماً مثل والده. باستطاعته ان يهب قميصه اذا ما احتاج الأمر لذلك.

خرجت الفتاة من غرفة العمة متسائلة كيف ستكون ردة فعل جيرفيه عندما يعلم بأن جوسلين لن تسافر مباشرة بعد الاحتفال بعيد السيدة سارة.

في اليوم التالي، توالت القوافل والشاحنات في عبور الطريق التي تبعد مسافة ٨٠٠ متراً عن مزرعة آل سانتون. وكالعادة، قبل يومين من الاحتفال السنوي، تكتظ جميع طرقات منطقة الكامارغ بذوي البشرة السمراء، الذين يريدون الاحتفال بسيدة البحار.

وقبل ان يذهب جان - مارك الى مدينة آلرز، مركز عمله، قال لجوسلين:

- الجمهور سيكون من هب ودب. بعضهم من فناني السيرك المشهورين، والبعض الآخر من الفنانين المزيفين الذين يتسولون للعيش. قبل الحرب، كانوا يأتون من جميع انحاء اوروبا. لكن الآن، هناك الستار الحديدي. ومعظم الذين يأتون اليوم الى هذا الاحتفال من اسبانيا.

في ذلك المساء وبينما كانت جوسلين والعمة منهمكين في تحضير الطعام، ظهرت بصارة غجرية على عتبة باب المطبخ، فدعتها العمة الى الدخول وقدمت لها القهوة وأرسلت جوسلين لاحضار كاميليا وجان - مارك.

اخبرت الغجرية كاميليا بأنها ستلد صبياً يتبعه بعد سنتين صبي آخر. ثم اضافت تقول:

- لديك موهبة، يا سيدة. واذا عرفت كيفية استعمالها، فستسعدين في حياتك. وتربحين الأموال الطائلة. الماضي مضى

وعليك البدء بالتفكير في المستقبل.

اندهشت كاميليا وقالت:

- موهبة؟ ماذا تعني بذلك، يا ترى؟

ثم راحت الغجرية تقرأ خطوط يد العمة. فدخل جيرفيه في تلك الأثناء واتكأ على حائط المطبخ ليسمع تنبوءات البصارة وهي تقول للعمة بأنها ستعيش عمراً طويلاً وستظل محترمة من قبل الجميع. ثم قال جان - مارك:

- دورك الآن، يا جوسلين.

- لا، لا اريد!

الجميع قالوا معاً، بصوت واحد، ما عدا جيرفيه:

- بلى، بلى.

كادت تستسلم حين قال جيرفيه للغجرية:

- الفتاة الانكليزية لا تؤمن بقراءة الكف، يا جدتي.

اشارت البصارة لجوسلين ان تجلس قربها، ثم قالت:

- اذن، انت تشكين في الأمر، يا ناعمة. لكنك فتاة عاقلة جداً، بالنسبة الى عمرك. صحيح بأن معظم البصارات مزيفات، لكن انا، ادعى ماريا بيساروورا، ولدي موهبة لا تخطىء. ستتذكرين ما سأقوله لك. اعطني يدك، يا ابنتي.

ظلت الغجرية لدقائق صامتة تنظر الى يد الفتاة التي بدأت تشعر بالانزعاج. اخيراً رفعت البصارة رأسها وقالت:

- ماتت والدتك عندما كنت ما تزالين صغيرة، والآن حلت مكانها امرأة اخرى في حياة والدك، واصبحت زوجته. ولم يعد احد بحاجة اليك هناك. لقد حان لك ان تختاري رجل حياتك وتبدأين حياة جديدة.

قالت كاميليا باستغراب:

- لكن، هذا كلام صحيح.

قطبت البصارة حاجبيها، منزعجة، ثم ضغطت على يد الفتاة واغمضت عينيها بضعة لحظات، ثم قالت:

- ارى في حياتك رجلين. احدهما من جنس آخر، وبينكما حواجز عديدة. اذا اخترته ستلاقين صعوبات، لكنك ستعرفين معه السعادة الكبرى في الوقت نفسه. وهناك في الجهة الأخرى من البحر، رجل آخر. معه، تعيشين حياة هادئة، لا يشوبها اي اضطراب وتوتر. اذا كان هذا ما تطمحين اليه، فعليك اختيار هذا الرجل... انما الرجل الغريب، الأسمر القاتم، هو الذي سيعرفك على نيران الحب. فكري جيداً، يا ابنتي. انا اعرف على من سيقع اختيارك، لكن ليس باستطاعتي ان اقول. القرار متروك لك، وحدك.

حين رحلت الغجرية، قالت كاميليا لجوسلين:

- الرجل الذي سيعرفك على نيران الحب سيكون فرنسياً، يا جوسلين. وستتعرفين عليه في العيد.

- لا تكوني حمقاء، يا كاميليا. هل تصدقين مثل هذه الخرافات. انا، لا اصدقها كل ما سمعته دخل من اذن وخرج من الأذن الثانية.

سألها جيرفيه في الحال:

- هل انت اكيدة من ذلك؟

رمقته الفتاة بنظرة خاطفة، فتقلصت يداها امام تعبير وجهه، وتساءلت بوجه ممتقع: «هل يعرف ماذا اشعر تجاهه يا ترى؟».

ثم اجابت قائلة:

- تماماً. لم اصدق كلمة واحدة مما قالته.

قال وهو يهز كتفيه:

- من السهولة التأثر بما يقوله الغجر. وفتيات جيلك لديهن افكار رومانسية. لكنني لا اعتقد بأنك ستلتقين رجل حياتك في العيد. فالرجل الانكليزي هو لك، يا صغيرة.

ضحكت كاميليا وقالت:

- الهذا الرجل وجود، يا جوسلين؟

- آه، هناك اكثر من واحد...

لكن قلبها تجمد، لأنها فهمت ما قاله جيرفيه. يريد ان يشير لها من طرف خفي ان تنسى عواطفها تجاهه ان كانت لها عواطف...

٦- عيد بأي حال عدت يا عيد... لم تستطع جوسلين الصمود في الليلة الأولى وفي الليلة الثانية اكتشفت حقيقة أذهلتها وعادت في جيب رجراج الى المزرعة...

في اليوم التالي، عشية العيد، قالت كاميليا:

- تعرفين، يا جوسلين، فكرت كثيراً بما قالته البصارة عني. انها على حق، نعم، لديّ موهبة. لن يصبح جان-مارك ابداً رجلاً ثرياً، لأنه ليس من النوع الوصولي. بل أنا من سيربح الأموال الطائلة.

- كيف؟ في مجال الموضة النسائية؟

- كلا، في الديكور الداخلي. تذكرت ما قلته عن مزرعة آل دورانس وكيف هي منظمة. فديكورها مأخوذ عن الأسلوب الانكليزي الريفي. وحسب رأي سيلين، الأثاث الانكليزي ذو شهرة كبيرة في هذا العصر. هكذا، عندما نستقرّ في مرسيليا، سأفتح مخزن ديكور: كاميليا وشركاؤها... ما رأيك؟

- هل نسيت بأنك مقبلة على تربية طفل رضيع؟

- آه، بامكاني ان أوظف خادمة ومربية أطفال. لا تبدأي بارشادي، فأنا لست من نوع الأمهات اللواتي يدللن اولادهن. صحيح سأكون فرحة بأن أصبح أماً، لكنني لا أريد أن اكرّس لولدي كل وقتي. في الحقيقة أرى رضاعة الطفل امراً غير ضروري، هل صدمتك كلماتي؟

- ستغيّرين رأيك عندما تنجبين طفلك.

- ربما. لكنني اشك بذلك. في كل حال، من الممكن للمرأة ان تكون اماً صالحة حتى ولو عملت خارج المنزل في الوقت نفسه. وهذه حال معظم نساء اليوم.

- لكنك لست مهنية أو حرفية! ومن سيهتم بالمحاسبة؟

- آه، جان - مارك، في المساء، الى ان يصير بامكاني توظيف محاسب دائم اختصاصي. اما من الناحية الديكورية البحتة، فأنا متأكدة بأن ذوقي في هذا المجال جيد ورفيع. عيناي تريان الألوان المناسبة بدقة وذكاء. شقتي اللندنية صممتها بنفسي، ونالت اعجاباً كبيراً لدى جميع اصدقائي.

- نعم، معك حق. أنا موافقة على النجاح. لكن من أين لك المال، يا كاميليا؟ من دون رأسمال معين المشروع مستحيل.

- لدي من المال ما يكفي لاستئجار مكان واسع وشراء المعدات الأولية، بانتظار ان ابدأ بالكسب والادخار.

- وهل ناقشت هذا الأمر مع زوجك؟

- آه، نعم. أمضينا نصف الليل في الحديث عن هذا المشروع. وجان - مارك موافق. لم يذهب الى عمله اليوم بل فضل الذهاب الى مرسيليا للبحث عن شقة مناسبة لنا.

عاد جان - مارك بعد الغداء، عندما كانت جوسلين وكاميليا جالستين في ساحة المنزل. دخلت الفتاة الى المطبخ لتحضر له كأس ليموناضة، ولما عادت قالت لها ابنة عمها بحماس:

- وجد جان - مارك ما نتوق اليه، يا جوسلين: منزل قرب الساحة العامة. في الطابق الأرضي سيكون محلي، القبو مستودع، ونسكن في الطابق الأول.

سألت جوسلين الرجل:

- هل المبنى بحالة جيدة؟ وهل الايجار معقول؟

- ليس المبنى في حال جيدة كما يجب. لكن كاميليا تصرّ على السكن في وسط المدينة. الايجار ليس غالياً، لأن الطلاء قديم والمنزل بحاجة الى تصليحات عدة. فتشت كلّ انحاء مرسيليا ولم أجد مكاناً آخر قرب المحلات والمقاهي.

- ولماذا لا تفكّران بالضاحية؟

هتفت كاميليا تقول بحدة:

- لا، لا. يجب ان نسكن في حيّ جيّد وهذا أمر أساسي وحيوي. لا أهمية ان كان وضع المنزل سيئاً، يا حبيبي. فسنقوم بالتصليحات الضرورية تزينه على ذوقنا. بعد ذلك لن يستطيع المالك ان يتعرّف اليه.

- لكن هناك مسألة التأمين. علينا ان ندفع مبلغاً قيمته مئة ألف فرنك، ونحن لا نملك هذه القيمة.

قالت كاميليا بهدوء:

- بامكاننا ان نطلب من جيرفيه مساعدتنا. هذا أقل ما يستطيع فعله من أجلنا. فهو لا يدفع لك فلساً واحداً من مدخول المزرعة.

- لكنني لا أعمل في المزرعة، يا حبيبتي ولا سبب لكي يدفع لي

شيئاً. الاّ يكفي انه يؤوينا ويطعمنا؟

- لكن المزرعة ملكك كما هي ملكه.

- جيرفيه الصبّي البكر، وهو الذي ورث المزرعة. لو لم يشتري الماشية من جديد، بعد الحرب، لما ملكنا شيئاً الآن.

قالت جوسلين مقترحة:

- لكن بامكانك ان تطلب قرضاً من المصرف.

- لا حاجة للمصرف من أجل مبلغ ضئيل كهذا. جيرفيه سيساعدنا. أنا سأحدثه بالأمر شخصياً اذا رفضت يا جان - مارك ان تقوم بالمبادرة هذه بنفسك.

- لا تبكي، يا حبيبتي. هذا يضرّ الطفل. اطمئني، سأحدث جيرفيه بالأمر.

- هل تعدني بذلك؟ نحن في حاجة الى هذا المبلغ من المال في الحال. اذا تأخر، سيستأجر المكان أحد غيرنا.

غضبت جوسلين من ابنة عمها وفضلت الدخول الى المنزل. غسلت شعرها وخرجت تجففه في الشمس. وجدت جان - مارك وحده فقال لها بأن زوجته تنام في غرفتها. بدا الهم كثيفاً على وجهه، فقالت له جوسلين:

- اسمعني جيداً، يا جان - مارك. منذ ان جئت الى هنا، لم أصرف المال الذي أملكه. وأريد مساعدتكما، انت وكاميليا.

احمرّ وجه الرجل وأجاب بخجل:

- لا، لا. هذا لطف منك، لكن لن أسمح بذلك. لا تقلقي علينا، ارجوك. لقد وجدت حلاً.

- من دون ان تطلب من جيرفيه مساعدتك؟

- تماماً. لست خائفاً ان يرفض طلبي، لكنه دائماً كريم معي، وأنا

اليوم زوج ويجب ان اتحمل مسؤولياتي وحدي.

- هذا أمر طبيعي، يا جان - مارك. لكن ما هو الحلّ؟ ماذا ستفعل؟

- لا تخافي، سأجد حلاً.

تذكرت جوسلين بأن الرجل وعد زوجته عدم الاشتراك في سباق الثيران الحرّ، فنظرت اليه متشككة وسألته:

- هل تنوي كسب هذا المبلغ من المال؟ أقصد تريد ربحه؟

من اندهاشه، ادركت انها اصابت جيداً، فتابعت تقول:

- آه، لا، يا جان-مارك وماذا لو اصبت بجروح خطيرة؟ النفقة تفوق الثمن.

قال الرجل مبتسماً:

- لكن، ليس في الأمر اي مخاطرة، يا صغيرتي. لا تخافي، لن أصاب بجروح. في مدينة آلرز، سباق حرّ كبير بعد ثلاثة أيام. اذا حالفني الحظ، سأربح المال الكافي لدفع التأمين وشراء بعض الأثاث.

- واذا لم يحالفك الحظ، ربما تجد نفسك في المستشفى. من زمان ولم تتمرن، والخطر موجود، لا تقل العكس. آه، أرجوك، يا جان - مارك، كنّ متعقلاً. سيجن جنون كاميليا اذا عرفت بالأمر.

- لن أخبرها... وانت أيضاً. هذا سرّنا، يا جوسلين. اقسمي لي بالاّ تخبري احداً بالأمر.

- حسناً، أعدك بذلك. لكن بنظري، هذا التصرّف من قبلك جنوني. هل ستقول لكاميليا بأن جيرفيه هو الذي أعطاك المال، في حال ربحت المباراة؟ ربما تذهب وتشكره وينفضح أمرك.

- كلا، سأطلب منها الاّ تفتح هذا الموضوع معه، لأن مثل هذه

القضية من شؤون الرجال فقط.

قبل العشاء، التقت جوسلين بجان ـ مارك في الممر، فقال لها:

ـ تحدثت مع جيرفيه عن مشروعنا الجديد، فاعتبرنا مجنونين، زوجتي وأنا، لكنه لا يستطيع منعنا.

بعد العشاء، ذهبت جوسلين الى الساقية. وللمرّة الأولى منذ مجيئها، ترى السماء ملبدة بالغيوم الكثيفة السوداء وتسمع الرعد يعصف من بعيد. كان الجوّ ثقيلاً ولا نسمة في الأفق.

جلست على الجسر الخشبي وخلعت صندلها ووضعت رجليها في الماء. في هذه الاثناء يجري الاستعداد للعيد. أما هي، فاصبحت جاهزة تقريباً: كوت فستانها وفستان كاميليا ولم يبق لها سوى تجعيد شعرها قبل الايواء الى النوم.

بعد قليل، لمحت جيرفيه يخرج من المزرعة ويتجه نحوها. ماذا يريد؟ احمرّ وجهها لدى تذكر كلماته بالامس. لكن كيف عرف بأنها وقعت في حبه؟ ما الذي قالته أو فعلته، حتى فهم حقيقة مشاعرها؟ لو كان فعلاً عالماً بكل شيء، ويرى ما يدور في ذهن وقلب الآخرين، لماذا لا يرى اذن بأن سيلين تحبه كثيراً؟

عندما اقترب منها، سألته:

ـ هل ستمطر غداً، حسب رأيك؟

ـ ربما... دائماً تمطر اثناء العيد. ربما تهبّ العاصفة في الليل، وغد يكون الطقس جيداً.

ـ آه، آمل ذلك، والاّ فسد العيد.

لم يرد عليها، فأخرجت قدميها من الماء وبدأت تجففهما بمنديلها. فجأة، سألها:

ـ لم تأكلي شيئاً تقريباً، خلال العشاء، وهذا ليس من عادتك.

هل هناك شيء على غير ما يرام؟

ـ لم أكن جائعة، بكل بساطة.

ـ هل انت قلقة يا ترى بسبب افكار ابنة عمك الجنونية؟

انتعلت صندلها وأجابت:

ـ لا، ابداً.

ـ هل تشجعينها على مشروعها الجديد؟

ـ لا دخل لي في الأمر. الفكرة فكرتها والأمر يتعلق بها.

نهضت الفتاة بغية العودة الى المنزل، لكنه قام بخطوة الى الأمام وسدّ عليها الطريق وقال:

ـ لنقم بنزهة قصيرة. أريد ان احدثك.

أجابته بلؤم:

ـ رغباتك أوامر، يا سيد سانتون.

ـ المعذرة.

ثم انحنى وقال:

ـ آه، ربما كان من المفروض ان اسألك، هل بامكاني الحصول على شرف رفقتك الرائعة؟

صرفت الفتاة باسنانها ومشت بخطوات واسعة، ثم خففت سرعتها، فقال لها:

ـ اذن، قررت تمديد فترة اقامتك، على ما سمعت؟

ـ نعم، بعد ان حصلت على اذن من عمتك، طبعاً. هل تجد في ذلك مانعاً؟

ـ ابداً. لكنني أفضل ان تعودي الى انكلترا، مباشرة بعد ولادة الطفل.

فقالت بصوت متوتر خفيض:

- آسفة اذا كان وجودي هنا يزعجك.

انغلقت يد جيرفيه على كتفها، وارغمها على التوقف عن المشي والنظر اليه مواجهة. دوى الرعد عن قرب، ولمع نور غريب فوق السهل. تكهرب الجوّ ثم قال جيرفيه بانزعاج:

- لا تكوني حمقاء. ليس هذا ما أقصد قوله. الا ترين ماذا سيحدث ان بقيت؟ ستستغل ابنة عمك وجودك لتستخدمك... في البداية الطفل... ثم مشروع مرسيليا. فهي لا تتكلم الفرنسية وكيف باستطاعتها القيام بمثل هذه الاعمال؟ هل تعتقدين بأن كاميليا قادرة على جعل المنزل صالحاً للسكن؟ كلا، انت من سيفعل ذلك. ستنظفين وتطهين وتهتمين بالطفل. تباً للشيطان انت تعرفينها، أليس كذلك؟ وترين كيف هي أنانية؟

صرخت الفتاة بوجهه قائلة:

- كيف تجرؤ! أتركني! رأيك لا يهمني اطلاقاً، يا سيد سانتون. انت، ربما تدير نصف منطقة الكامارغ، لكن أنا، ليس من واجبي ان أتلقى الأوامر منك.

حاولت التخلص من قبضته. في تلك اللحظة، لمع البرق في السماء. وعلى بعد عشرة امتار منهما، اشتعلت شجرة عرعر. فوجدت جوسلين حالها بين ذراعي جيرفيه.

هل هو الذي تحرّك نحوها ام هي؟ أو انه انجذاب بدائي قذفهما عنوةً الى ذراعي بعضهما البعض؟

عصف الرعد وبدأت قطرات المطر الأولى تتساقط. وبعد دقيقة، بدأ الطوفان.

لا فائدة من الأختباء أو الالتجاء الى مكان واق، اذ بثوان معدودة، اصبحا مبللين حتى العظام، وتحولت الطريق المغبرة

الى مستنقع.

امسكها جيرفيه بذراعه واتجه بها نحو المزرعة. لولاه، لوقعت ارضاً. بسرعة، امتلأت ركبتاها وحلاً. لما وصلا أمام الباب، بدأ المطر يخف. عندما دخلت الى المطبخ، صرخت كاميليا قائلة:

- يا الهي! شعرك... صندلك...

قال جيرفيه لكاميليا بلهجة آمرة:

- اذهبي وأحضري مئزراً ومنشفة، من فضلك.

ثم دفع جوسلين الى الكرسي وانحنى ليخلع صندلها الموحل، بينما كان جان - مارك يساعد عمته في ملء المغطس بالماء الساخنة، ويقول مبتسماً:

- رأيناكما عائدين. ماذا كنتما تفعلان هناك، خارجاً؟ كان عليك، يا جيرفيه، ان تعرف بأن العاصفة قريبة.

تجاهل الأخ هذه الملاحظة ثم ساعد الفتاة على الوقوف ثم حملها ووضعها على المجلى وقال:

- يجب أولاً نزع هذه الأوساخ عن رجليك قبل أخذ الحمام.

وراح يغسل رجليها وقدميها الموحلتين. ولما جهز المغطس وامتلأ بالماء الساخنة، انسحبت العمة وجان - مارك من الغرفة. عادت كاميليا ورفعت حاجبيها مصدومة أمام ما رأته، لكنها لم تجرؤ على قول شيء.

عندما نظفت قدما جوسلين، اعادها جيرفيه الى الارض وامرها قائلا:

- والآن، الى المغطس. وأنا ذاهب لأستحم في حمّام الرجال.

لما خرج، نزعت الفتاة ملابسها ودخلت في المغطس القديم، تتمتع بسخونة الماء. شعرت بالاسترخاء واغمضت عينيها لتتذكر

اللحظات التي امضتها بين ذراعي جيرفيه. ثم تذكرت عراكهما وما قاله عن كاميليا واومأت رأسها وهي تقول لنفسها: «انها الحقيقة، طبعاً... لكن ماضي كاميليا، الا يبرر أنانيتها الشديدة؟».

كانت قد ارتدت ملابسها وجففت شعرها، عندما طرق جيرفيه الباب. رفعت الفتاة شعرها الى الوراء وقالت:

- نعم... بامكانك الدخول الآن.

كان يرتدي ملابس نظيفة وحذاء جديداً. شعره الرطب يلمع مثل ريش الغراب. قال لها:

- والآن، سأعد لك الشاي الساخن. فلا اريدك ان تلتقطي برداً وتمرضي.

- لا ضرورة كي تعاملني مثل فتاة صغيرة، يا سيدي.

بعد قليل حمل فنجانين مليئين شاياً، وضع واحداً على طاولة قربها، ثم قال:

- اشربي، ستهدأ اعصابك.

- اعصابي هادئة.

جرعت الفنجان وأحست بالدفء والارتياح، ولما انتهت، سألته بصوت بارد:

- والآن، هل بامكاني أن أذهب الى فراشي وأنام؟

- نعم، سننهض باكراً، صباح غد. نامي جيداً، يا صغيرتي.

رمقته بنظرة صاعقة، ثم ادارت له ظهرها، فقال لها قبل ان تختفي عن الانظار:

- ماذا تعتقدين بامكاني فعله اذا لم تطيعي أوامري؟ هل تخافين ان أعاملك كامرأة؟

سمعت ضحكته حتى وصلت الى غرفتها.

عندما استيقظت جوسلين في صباح اليوم التالي، كانت السماء زرقاء. أفاق الجميع والساعة لم تتجاوز بعد السادسة.

بعد الفطور، ركب الحراس خيولهم، يعتمرون أجمل قبعاتهم ويرتدون ستراتهم المخملية السوداء وسراويلهم القطنية الجميلة. في التاسعة، صعدت السيدة سانتون في عربة صغيرة، برفقة أحد الحراس وزوجته. في الحادية عشرة صعدت كاميليا وجوسلين في سيارة جان - مارك.

أما جيرفيه فلم يظهر أبداً. قال جان - مارك بأن اخاه ذهب باكراً لتفقد قطيعه مع رجلين من حراسه، ولا شك انه تأخر بسبب شيء غير متوقع. لكنه أضاف يقول باقتناع داخلي:

- غير انه سيصل في الوقت المحدد لحضور الموكب.

وفي هذا الأحد من أواخر أيار (مايو)، كانت المدينة تعجّ بالحركة وتبدو كقلعة محصنة، يتهافت اليها السيّاح والحرّاس والغجر. القيثارات الأسبانية تعزف الموسيقى الشعبية الحماسية، بائعو الحلوى يصرخون بأعلى أصواتهم، ترويجاً لبضاعتهم، راقصو الفلامنغو ولاعبو الروليت... وأولاد يتسولون الدراهم لشراء الكاراميلا والحلوى.

وككل سنة، حجزت عائلة آل سانتون صالوناً خاصة لها في احد المطاعم الفخمة، لتناول الغداء مع آل دورانس وعائلة أخرى.

من السيارة حتى المطعم، بالكاد استطاعوا اختراق الازدحام الكثيف. وبدت كاميليا على شفير البكاء. فقال لها زوجها:

- ما كان يجب عليك حضور العيد هذه السنة، يا حبيبتي. كنت بقيت معك في المزرعة بكل طيبة خاطر.

- لا، أريد المجيء. أكره ان أكون مرفوضة.

وصل الجميع الى المطعم، ما عدا جيرفيه. كانت سيلين ترتدي فستاناً تقليدياً واسعاً، ضيق الاكمام، من القماش الحريري السميك الأصفر اللون. الصدر مطرّز بالدانتال الأبيض وشعرها مرفوع كعكة ومزيّن بتاج صغير من الدانتال والمخمل الأسود. حول عنقها شريطة سوداء مرصّعة بحبّات الماس البراقة.

كان الطعام مؤلفاً من البزّاق وحساء السمك المتبّل بالبهارات والثوم والزيت، وقالب حلوى بالبرتقال. كانت جوسلين جالسة بين شابين من أبناء عائلة آل كولبير، وتنظر الى سيلين وهي تغازل الأبن الأكبر، في الطرف الآخر من الطاولة.

بعد الغداء، دعا صاحب المطعم كاميليا ان ترتاح في الصالون الخاص، فقال له جان مارك باصرار:

ـ سأذهب معها. ابقي مع الآخرين، يا جوسلين. واذا تمكّنت من اقناعها، سأوصلها الى المزرعة باكراً. بامكانك ان تعودي مع آل كولبير، الاّ اذا قبل جيرفيه ايصالك بنفسه.

اسودّت الساحة من كثرة الناس، وبدأت الاجراس ترنّ، في حوالى الرابعة. بدا مستحيلا الدخول الى الكنيسة لحضور الاحتفال، لاحتوائها على الغجر بكثرة.

فجأة ظهر تمثال السيدة سارة، يحمله الرجال الراكبين فوق احصنتهم. في حرس الشرف، لمحت جوسلين جيرفيه وبدا مثل فارس الاحلام.

بعد قليل اتجه الموكب نحو البحر وعلت الأصوات تنادي: «لتعش السيدة سارة!». وضع التمثال في الماء، باركه القس، ثم جرت اعادته الى المغارة.

في هذه المعمعة، اضاعت جوسلين رفاقها، وظلّت تتسكع وسط

الازدحام باحثة عن وجه تعرفه.

وبينما كانت تستعد للعودة الى المطعم للاطمئنان عن كاميليا، رأت من بعيد جيرفيه على حصانه. لم تحاول لفت انتباهه بل ظلّت تنظر اليه، عندما توقف وانحنى ليهمس في اذن شخص ما. بعد قليل رأت سيلين بثوبها الأصفر، يحملها غجري ويضعها على حصان جيرفيه، قربه. تبتسم له وهو يحضنها بذراعيه.

فجأة لم تعد تحتمل الحرّ والزحام اغرورقت عيناها بالدموع ودخلت الى المطعم. كانت كاميليا وجان مارك قد عادا الى المزرعة، لكن العمة وآل كولبير ما يزالون هناك. ولما طلبت منهم الفتاة اعادتها الى المزرعة، فوجئوا وقالت العمة شارحة:

ـ بعد قليل، سيبدأ الرقص، وفي المساء يصبح الجوّ اكثر مرحاً.

ـ لكنني أفضل العودة، فأنا متعبة كثيراً.

ـ حسناً. سترين ما ينقصك اليوم، في الغد.

سمعت صوتها الداخلي يقول: «ربما، حين يأتي المساء، سيطلب جيرفيه يد سيلين. سيرقصان معاً تحت ضوء القمر، وسيضمها الى صدره، ستضحك له. ويضحك لها... ثم، يختفيان على الشاطىء و... آه، كفى! لماذا هذا العذاب؟ لا تفكري بهما. امحيهما من عقلك. هذا جنون، منذ البداية...».

في صباح اليوم التالي، وجدت جوسلين صعوبة في العثور على عذر مقبول للتمنع من حضور اليوم الثاني من الاحتفال. واستاء جان ـ مارك عندما اقترحت هي البقاء مع كاميليا مكانه، فقال لها:

ـ لا... لا... من واجبي ان أبقى معها. كيف الهو من دونها؟

ـ أظن بأن عليّ المكوث هنا، أنا أيضاً. لدي احساس بأنها ستلد اليوم.

سمع جيرفيه هذا الحديث، فقال:

- هذا مستحيل. موعد الولادة بعد عشرة أيام.

أجابته من دون النظر اليه:

- البكر يولد احياناً قبل أوانه.

- في هذه الحال، عمتي باقية هنا وتهتم بالأمر. يجب ان تأتي الى العيد، اليوم، يا صغيرة. ستتذكرين هذا النهار طيلة حياتك.

تشابكت نظراتهما. هل يريد تذكيرها بأنها غريبة ولن ترى العيد الاّ هذه المرّة؟

- حسناً. سآتي.

- سآخذك في سيارة الجيب، لأن عربة آل كولبير لا تأخذ أكثر من أربعة ركاب. ورفاييل سيمتطي حصاني «قيصر».

في العاشرة كانت جوسلين جاهزة. ارتدت تنورة قطنية خضراء وقميصاً توركوازياً. وفي الطريق، قال لها جيرفيه:

- أمس، عدت باكراً جداً. اخبرتني عمتي ان الحرّ ضايقك. هل هو السبب الحقيقي أم هناك سبب آخر؟

- ماذا تعني؟

- لم أر رفاييل طيلة السهرة، ربما هو أيضاً وجد الطقس حاراً لا يطاق.

- هل تصورت بأننا كنا على موعد سرّي؟

- ما زلت اتساءل.

- آسفة لخيبة ظنك. لم أتكلم مع رفاييل منذ... منذ اليوم الذي أطلعتني فيه انك لا تحبّذ صداقتنا.

بعد قليل، سألته:

- هل تعتبر بأن جان - مارك مصارع ثيران جيد؟

- نعم، لا بأس به.

- أليست المصارعة الحرّة خطرة كالمصارعة العادية؟

- السباق الحرّ رياضة ولا يمكن مقارنتها بمصارعة الثيران المعروفة. أنا اشمئز عندما أرى ثيراناً جميلة، تعذبها وتحتقرها كائنات حمقاء ترتدي بزات العيد والجوارب الحريرية. أنا لا أقبل اطلاقاً تعريض ثيراني الى مثل هذه الوحشية.

- آسفة... فأنا لا أعرف شيئاً عن هذا كله. لكن، آل دورانس يدرّبون ثيرانهم للمصارعة، أليس كذلك؟

- نعم، كغيرهم من اصحاب الماشية. لكن الثيران الاسبانية لا تتمتع بالمرونة والشجاعة، مثل ثيران منطقة الكامارغ الأصلية. الآخرون يفعلون ما يريدونه، لكن أنا، أرفض ارسال حيواناتي الى الموت من أجل فرح وغبطة اشخاص يخافون من كلب شرير.

بدا عليه الغضب، لذلك توقفت جوسلين عن متابعة الحديث. وعمّ الصمت بقية الطريق.

كان الغداء في المطعم اياه، لكن، هذه المرّة، جلست جوسلين قرب لوك كولبير، بينما جلس جيرفيه قرب سيلين. وفي هذا اليوم الثاني، كانت الفتاة الفرنسية ترتدي ثياباً عصرية فاخرة، وفي يدها اليمنى، يلمع خاتم ياقوت مربع يلفت الانظار.

راح لوك كولبير يغازل جوسلين كما فعل مع سيلين بالامس. لم يكن هذا الامر يعجبها، لكنها دخلت في اللعبة كي تتحاشى النظر الى جيرفيه وسيلين.

وفي آخر الغداء، امسك لوك يد الفتاة من تحت الطاولة، وظلت تتحمل ضغط اصابعه الرطبة الساخنة حتى جاءت القهوة.

ولم يبتعد عنها لحظة واحدة خلال فترة بعد الظهر. بعد حضور

الاحتفال والموكب، توجها معاً الى مغارة السيدة سارة المضاءة بالشموع، وحيث يتحلّق الغجر!

لم تستطع جوسلين المكوث طويلاً في المغارة لأن لوك كان يريد الخروج الى الشارع، بعد ان تأبط ذراعها. ولم تشعر الفتاة بالارتياح الاّ عندما دقت الساعة لبدء الالعاب التقليدية داخل الحلبة، وعندما علمت بأن لوك فرد من اللاعبين ولن يجلس قربها، جلست قرب والد سيلين.

دخل جيرفيه الى الحلبة على ظهر حصانه قيصر وتناول من يد سيلين باقة زهور، حاول الحراس نشلها منه، من دون جدوى.

بعد سباق الحبال ذات الانشوطة لاقتناص الخيول، بدأ السباق الحرّ الذي اشترك فيه عشرة شبان، كل واحد على حدة. لكن، لا أحد نجح في اقتلاع الوردة من بين قرني الثور. اشتد التصفيق، وكان الحيوان هو البطل المنتصر.

وما ان انتهت الألعاب حتى عاد لوك اليها. ماذا بوسعها ان تفعل. لم تعد قادرة على تحمل نظراته المحدقة بفمها، وضغط ركبته تحت الطاولة بينما كانا مع الجميع يتناولان المشروبات المنعشة، على شرفة المقهى.

بدأ الناس يرقصون في الشوارع. دعا السيد دورانس، والد سيلين، جوسلين الى الرقص، اولا، ثم تبعه لوك، واخيراً جيرفيه الذي كان يرقص معها، فقط قياماً بواجبه الاجتماعي.

ولما اصرّ لوك على جوسلين ان ترافقه الى الروليت، تدخل جيرفيه وقال:

ـ ربما لا تشاطرك الآنسة حبك للروليت.

لكن الفتاة قالت بحماس:

ـ لا مانع لدي أن اجرّب ذلك.

عندما اصبحت وحدها مع لوك، تمكنت من افهامه بوضوح بأن السهرة لن تنتهي كما يتوقع. فحزن لوك قائلا بأن الجميع يعرف صيت الانكليزيات والاميركيات فندمت لأنها لم تكن حذرة معه منذ البداية ونظرت اليه بغضب وقالت له قبل ان تدير له ظهرها وترحل:

ـ نعم، يا للأسف.

دقت الساعة العاشرة، وجوسلين تسير منذ ساعة بين المارّة، تتذوق الحلوى الطيبة والقطائف المشهورة وتنظر الى راقصي الفلامنغو. فجأة لمحت رفاييل مع مجموعة شبان وشابات، توقف قربها وسألها:

ـ آنسة جوسلين! هل تمرحين؟

ـ نعم، كثيراً. هل تريد بعض القطائف؟

ـ شكراً. انت وحدك؟ لا يجب ان تبقي وحدك في هذه المعمعة.

ـ اطمئن عليّ. فالآخرون ليسوا بعيداً عني كثيراً.

أشار لها بيده وهو يبتسم وقال:

ـ الى اللقاء، اذن.

بعد قليل، لاحظت شاباً وفتاة، يتعانقان بشغف، وراء باب محل صغير نصف مفتوح. المحلّ كان مقفلاً، لكن ضوء الزجاج جعل خاتم الفتاة يلمع وهي تداعب عنق الرجل.

جمدت جوسلين مكانها لا تصدق ما ترى. انها سيلين، لكن الرجل الذي معها ليس جيرفيه. ثم سمعت صوت سيلين وهي تقول للشاب:

ـ ليس هنا، فالناس سيروننا. لنبحث عن مكان منزو واهدأ.

ـ بكل سرور، يا حلوتي.

كان السيد دورانس ما زال في المقهى عندما عادت جوسلين. ومعه السيد كولبير، من دون جيرفيه.

- ماذا تحبين ان تشربي، يا آنسة؟ اين ابني، أليس معك؟

- كلا. الازدحام فرقنا.

ابتسم لها السيد دورانس وقال:

- كان جيرفيه قلقاً عليك. ربما اعتقد بانك متعبة وذهب للبحث عنك منذ نصف ساعة لن يتأخر بالعودة، الآن.

حين عاد جيرفيه، كان الشرر يتطاير من نظراته. آه، يا الهي، لا بدّ انه رأى سيلين حتى يكون غاضباً الى هذا الحدّ.

ببرود لا يصدق، قال لها:

- هل تريدين العودة الآن، يا جوسلين؟ الطريق طويلة أمامنا.

نهضت الفتاة بسرعة وقالت:

- نعم، متى تريد.

ودّعا الآخرين، وتأبط جيرفيه ذراع جوسلين حتى وصلا الى الساحة، حيث كانت سيارة الجيب متوقفة.

العودة الى المزرعة ذكرت الفتاة بيوم وصولها، في سيارة الجيب الرجراجة في رياح الميسترال، وبجيرفيه وقساوته. لكن، في هذا المساء، منطقة الكامارغ هادئة، وفي المستنقعات ينعكس ضوء القمر والنجوم العديدة.

في هذا المساء غضب جيرفيه الحاد سبب ارتجاج السيارة، لأنه كان يقود بسرعة جنونية على هذه الطريق الرملية، غير المعبدة. جوسلين، متعلقة بمقعدها، مليئة بالشفقة المؤلمة عليه. لأنها تعرف تماماً شعوره الحالي.

كانت الاضواء مطفأة داخل المزرعة، لكن الفتاة تعرف طريقها

الى المطبخ ولم تجد صعوبة في اشعال المصباح الزيتي.

لما اضاءت الشعلة ارجاء الغرفة، سألته بصوت غير مطمئن:

- هل تريد بعض القهوة؟

دفع الباب بعنف واتكأ عليه وسألها بلهجة قاطعة:

- ما الذي بينك وبين لوك؟

أجابت بتلعثم:

- لا... لا شيء... اختلفنا... وافترقنا... ببساطة.

- أولا، رفاييل، والآن، لوك كولبير. لست عاقلة ابداً في اختيارك. لكن في المرّة المقبلة، ستجدين نفسك في مأزق حرج وصعوبة لا مفرّ منها.

فضلت عدم الردّ عليه باللهجة نفسها، لأنها تعرف بأنه ينفث عن غضبه بل سألته بهدوء:

- هل تريد قهوة، ام انك تفضل الذهاب الى النوم في الحال؟

- تباً لك ولقهوتك!

فجأة تقدم منها وقال:

- لم اعد اتحمل سلوكك هذا، يا ابنتي. في البداية، تذهبين مع رفاييل، وكان عليّ ان انتشلكما من عراك عنيف. واليوم، تغازلين لوك كولبير الأحمق. ماذا تريدين؟ تبحثين عن مغامرة مثيرة لتخبريها لاصدقائك، عندما تعودين الى انكلترا؟

امسكها بعنف وضمها اليه وعانقها. ولما ابتعد عنها، دخل في تلك الاثناء جان - مارك الى المطبخ، لكنه لم يلاحظ شيئاً لشدة توتره، وقال:

- آه، جوسلين، تعالي بسرعة، ارجوك. جيرفيه، اذهب وأحضر الطبيب. اشرفت كاميليا على الولادة.

٧- مع ولادة طفلة كاميليا ولدت ايضا آمال صغيرة، وبين حوافر حصان هائج استيقظ حبٌ كنا نعتقده لن يولد الى الأبد...

ولدت ابنة كاميليا عند الفجر، وبعد صراخ الاحتجاج المنتظر، نامت، ونامت امها قربها. العمة وجوسلين لم تجدا دقيقة راحة. بعد ليلة بيضاء، احضرت جوسلين عجة للطبيب ثم فطوراً للحراس. البعض خاب املهم حين علموا ان الطفل انثى، لكن جان- مارك كان مسروراً، وأمضى كل فترة قبل الظهر يتأمل وجه ابنته الأحمر المجعّد، ونسي كلياً مصارعة الثيران في آلرز.

بعد الغداء، تمكنت جوسلين من الاستراحة قليلا، امام المنزل، في الساحة الصغيرة، لكنها لم تكن تشعر بالتعب اطلاقاً. وقت الولادة، ارادت العمة اخراجها من الغرفة، لكن كاميليا تعلقت بيدها ورجتها ان تبقى معها. لم تندم الفتاة لحضورها الولادة وأدركت

لماذا لم يكن والدها يشعر بالتوتر أبداً بعد عودته من التوليد. كما تذكرت انه قال لها، ذات مرة: «التوليد هو العمل الوحيد الذي لا يصبح رتيباً مع الزمن. في كل مرة، الولادة معجزة».

في منتصف بعد الظهر، جلست كاميليا في سريرها، وضعت حمرة على شفاهها وطلبت ان تأكل اكثر من حساء الدجاج. ولما جلبت لها ابنة عمها صحن بيض مقلي، قالت لها:

- آه، ما أروع اختفاء البطن والعودة الى الجسم الرشيق النحيل!

فجأة قال لها جان- مارك:

- كاميليا، علينا ايجاد اسم للطفلة، كنا متأكدين من ان الطفل سيكون ذكراً...

اقترحت عليهما جوسلين قائلة:

- لماذا لا تسمونها «سارة»... مثل السيدة سارة؟

أجابت ابنة عمها قائلة:

- نعم... نعم. أحب هذا الاسم. ما رأيك يا حبيبي؟

أجاب الزوج:

- هذا اسم رائع ومناسب. ربما نسميها «سارة ليوني»؟ انه اسم والدتي.

فقالت كاميليا بفرح:

- «سارة ليوني سانتون». انه اسم رائع وأنيق.

تعرف جيرفيه على ابنة أخيه قبل العشاء. كانت جوسلين في الغرفة عندما دخل وقال مبتسماً:

- كيف حالك، يا كاميليا؟

- آه، جيدة جداً، شكراً. ما رأيك بطفلتنا؟ بشعة، أليس كذلك؟

انحنى جيرفيه فوق الوجه الصغير المشتد احمراراً وتقلصت شفتاه، ثم قال:

ـ حتى الآن، لا تشرّف الطفلة جمال والدتها... لكنها جذابة على ما يبدو.

احمرّت الأم لهذه اللياقة غير الاعتيادية لدى الرجل، وقالت له:

ـ انها تدعى سارة ليوني هل يعجبك الاسم؟

ـ انه اختيار رائع حقاً.

ناولها ظرفاً وأضاف يقول:

ـ خذي هذا. عندما تولد فتاة في العائلة، تتطلب التقاليد من المسؤول الكبير ان يهديها مهرها. لكن، بما ان الفتيات يتزوجن من دون مهر في ايامنا، بامكانك وأخي ان تتصرفا معاً بالهدية. والآن أتركك ترتاحين. تصبحين على خير، يا زوجة أخي.

عندما خرج جيرفيه، فتحت كاميليا الظرف وصرخت باعجاب:

ـ مئة ألف فرنك... ليس بخيلا كما تصورته.

قالت جوسلين:

ـ هذا كرم حاتمي.

ثم قالت لنفسها: «لم ينظر الي لحظة واحدة، لم يلتفت نحوي مرة واحدة، كأن لا وجود لي». ولدى تذكرها ما حدث بالأمس، داخل المطبخ، راح قلبها ينبض بسرعة جنونية، فاضطرت لمغادرة الغرفة في الحال.

في سريرها، حاولت ان تجد تفسيراً لانفجار جيرفيه الغريب، لكن من دون جدوى. هل كانت مخطئة؟ هل كان غاضباً منها، لسبب سلوكها؟ لكن لماذا؟ هل هو يغار عليها؟

بريق امل احتلها فجأة، ثم اختفى بسرعة. كلا، طبعاً، انه لا

يغار عليها. الغيرة تأتي من الحب... وهذا سراب.

تحركت في سريرها، ثم خبأت رأسها في الوسادة. اغمضت عينيها وتذكرت عناقه. لماذا عانقها هكذا... بقسوة وعنف، كأنه يريد معاقبتها؟ ماذا قالت الغجرية البصارة؟ ألم تقل: «الرجل الأجنبي، الأسمر القاتم، هو الذي سيعلمك نيران الحب؟».

أصابها الارتجاف وراحت تقول لنفسها: «ما قالته حقيقة. مساء امس، معه لم أخف. اردته ان يعانقني هكذا. لم أكن أريد مقاومته... كنت أريد ان يدوم ذلك الى الابد».

خلال اليومين التاليين لم تره الا على مائدة الطعام، وكان يتجاهل وجودها كلياً.

وعندما ذهب جان- مارك الى مرسيليا ليدفع التأمين، اصطحب جوسلين معه، بعد ان قال لها:

ـ أريد رأيك قبل الانتهاء من معاملات الايجار.

وجدت الفتاة المنزل في وضع أفضل مما كانت تتصوره. امامه حديقة واسعة وجميلة، يمكن وضع سارة ليوني فيها في الطقس الحار.

كانت جوسلين تأمل بأن العلاقة بين ابنة عمها والعمة ستتحسن بعد الولادة، لكن العمة انصدمت حيال رفض كاميليا ارضاع الطفلة بنفسها فأصبحت العدائية بين المرأتين أسوأ مما كانت عليه، مع العلم ان العمة لا تعرف شيئاً عن مشاريع جان- مارك الجديدة وانتقال العائلة الى مرسيليا.

في طريق العودة، قالت جوسلين لجان- مارك:

ـ عليك ان تخبرها بسرعة عن مشاريعك وعن نيّتك في العيش في مرسيليا.

ـ نعم، سأخبرها في المساء. أظن بأنها ستحزن لهذا الخبر كثيراً.

وعندما أخبر جان- مارك عمته بمشاريعه الجديدة، أصغت اليه بصمت، ولم تجبه بشيء، أضاف يقول:

ـ مرسيليا ليست بعيدة من هنا، وسأتي دائماً لزيارتك.

بعد صمت ثقيل، ضغطت العمة يدها على فمها وأطلقت صرخة قوية. وظلت حابسة نفسها في غرفتها كل السهرة. ولما حاول جيرفيه وجان- مارك التحدث اليها من وراء باب غرفتها، لم ترد عليهما اطلاقاً. شحب وجه جان- مارك وقال لأخيه:

ـ هل تعتقد انها...

قاطعه جيرفيه قائلا:

ـ لا تكن أحمق، انها متوترة وهذا أمر طبيعي جداً. انها تعتبرك الركيزة الأساسية في حياتها. ومن الصعب على المرأة ان ترى ابنها يرحل عنها، من دون ان تشعر بالحزن العميق. لكنني متأكد من انها ستتغلب على هذه المحنة في وقت قريب جداً.

بعد قليل، بدأت الطفلة تبكي، فغيرت لها جوسلين حفاضها الوسخ، ثم أطعمتها زجاجة حليب، لكنها ظلت تبكي. فقالت لها كاميليا:

ـ آه، لم أعد استطيع تحمل صراخها.

فاقترحت عليها جوسلين قائلة:

ـ ما رأيك ان آخذها الى غرفتي، هذه الليلة.

ساعد جان- مارك الفتاة على نقل سرير طفلته الى غرفتها، فنامت سارة ليوني بسرعة حتى موعد اطعامها في العاشرة. ولما نزلت جوسلين الى المطبخ لاحضار زجاجة الحليب لوجبة الساعة الثانية، رأت الضوء في غرفة جيرفيه، وتساءلت ما الذي يشغله الى هذه الساعة المتأخرة من الليل.

في الليل، بعد الرضاعة، رفضت الطفلة ان تنام، فحملتها جوسلين وغنت لها، غيرت ملابسها الرطبة، وضعتها في سريرها، وراحت تهزه وتقول لها بصوت هادىء:

ـ هس... انك توقظين المنزل كله.

عندما انفتح الباب، اعتقدت بأن جان- مارك جاء ليطمئن عن ابنته، لكنها فوجئت بجيرفيه يدخل اليها ويسألها بهدوء:

ـ ماذا يجري؟

أجابت الفتاة:

ـ لا أعرف.

مدّ يده وقال:

ـ دعيني أجرّب.

ناولته الطفلة، ثم ارتدت مئزرها بسرعة، خجولة لأنه رآها في قميص النوم الشفاف.

حمل الرجل الطفلة على كتفه وأمسك برأسها وراح يحدثها بلطف. فتوقفت عن البكاء فجأة، ولما وضعها بعد قليل في مهدها، قالت له جوسلين:

ـ شكراً. الظاهر انك خبير.

هزّ كتفيه وقال:

ـ أنا معتاد على الحيوانات الصغيرة. آمل ألا تزعجك مجدداً. تصبحين على خير.

في اليوم التالي، باشرت العمة عملها كالمعتاد كأن شيئاً لم يكن. وبعد الظهر جاءت سيلين على حصانها لزيارة الأم وطفلتها. بعد ساعة من الحديث مع كاميليا، خرجت لرؤية جوسلين التي كانت تلمع حذاءها في الساحة. فقالت لها الفتاة الفرنسية:

- حان وقت عودتك الى انكلترا، على ما أظن. فالولادة تمّت بشكل طبيعي.

- لا أدري. ربما تريدني كاميليا ان أساعدها في الانتقال الى منزلها الجديد، في مرسيليا.

- آه...

فجأة، قالت لها جوسلين بصوت مرتفع:

- لماذا وضعت الشمعة في حساء البصل؟

- عما تتكلمين.

- هيا، أنا لست حمقاء. كنت تعرفين جيداً بأنني سأكشف الأمر. لقد نجحت في جعلي تافهة أمام الآخرين، اذا كان هذا ما تريدينه. لكن هذا من الماضي، ونسيه الجميع. الآن، قولي الحقيقة، فلن أخبر أحداً. انت وضعت الشمعة في الحساء، أليس كذلك؟

- نعم. أنا فعلت ذلك. واذا كنت تريدين معرفة السبب، فلأنني لم احتمل سماع الكلام عنك... وعن صفاتك العديدة.

- هل كان جيرفيه يتحدث عني أمامك؟

- لم يفعل الا ذلك طيلة السهرة. لكن، لا تتوهمي كثيراً، يا عزيزتي، اعرف بماذا تفكرين. لقد رأيت كيف تنظرين اليه. تأكدي بأنه لن يكون هناك فتاة انكليزية ثانية في مزرعة سانتون. انت تضيعين وقتك.

- تريدينه لك، أليس كذلك؟

- نعم، وهو يريدني ايضا. اننا شبيهان. صحيح انه يفضلك على كاميليا، لكنه لن يشتهيك أبداً. أنت غريبة هنا. لا تعرفين حتى ركوب الخيل.

- ما دمت تحبينه، لماذا تركت رجلا آخر يعانقك، مساء الاثنين،

اليوم الثاني للعيد. لقد رأيتك.

اضطربت الفتاة الفرنسية وقالت:

- وأخبرت جيرفيه.

- كلا. هذا ليس من شأني. لكن ربما أحد آخر غيري أخبره بذلك.

بتحدٍّ، قالت سيلين:

- لكنه لن يصدق ذلك.

- ربما لا. لأنه يعتبرك مغرمة بأخيه.

- آه، لم أفكر بأخيه مرة واحدة، أبداً. العمة كانت ترغب ان يتزوجني. صحيح ان جان- مارك شاب وسيم، لكنه ليس مثل جيرفيه. زوجي انا لن يكون سوى جيرفيه سانتون.

ركضت سيلين بسرعة الى الحاجز حيث ينتظرها حصانها، فتبعتها جوسلين وسألتها:

- لكن، هل هو ايضا يريدك. انت لا تحبينه، يا سيلين. انت لا تعرفين معنى الحب. تريدين الحصول عليه كأنك تريدين فستاناً أو جوهرة، فقط لتظهري نفسك أمام الآخرين، وليس لتعتني به وتسعديه.

- وماذا تريدين، يا آنسة. أنت أيضا، لا تحبين ان تصبحي زوجة جيرفيه.

- بلى... أنا أحبه من كل قلبي، كما أعرف بأنه لا يبالي بي. كل ما آمله، هو ألا يتزوجك ويخطىء.

ضحكت سيلين بتوتر وقالت مقلدة صوت جوسلين:

- أنا أحبه من كل قلبي! سأخبره بذلك، يا عزيزتي، وسيضحك... انت على حق! لن تحصلي عليه أبداً.

ثم قفزت على حصانها وأعطته أمراً غامضاً. أجفل الحصان. أرجع أذنيه الى الوراء وفتح فمه. رفعت جوسلين ذراعيها لتحتمي من حوافر الحصان الغاضبة، فرجعت الى الوراء وتعثرت قدماها ووقعت. صهل الحصان الابيض فوقها. ارتعبت الفتاة ولم تستطع الصراخ. كانت ممددة على الأرض تتوقع في أي لحظة ان تسحقها حوافر الحيوان.

فجأة سمعت صوتاً من بعيد. ركض الرجال. يدان قويتان سحبتاها على حدة فقال لها احد الحراس وهو ينحني فوقها:

- يا الهي، يا للهول، هل انت بحال جيدة، يا آنسة؟ هل أصبت بجروح هل ضربتك هذه المجنونة؟

رفعت رأسها ورأت جيرفيه يحاول تهدئة الحصان. انتصبت على قدميها، جامدة نصف متأرجحة، فأمر جيرفيه أحد حراسه بادخال الحصان الى الاسطبل. وسيلين واقفة قربه تحاول ان تشرح له بكلمات غير متناسقة وكأنها على وشك الغثيان. تقدم جيرفيه من جوسلين متجاهلاً سيلين وسألها:

- هل أصبت بجروح؟

- كلا، أنا بخير. أنا... آسفة يا جيرفيه.

- آسفة!

أمام الجميع، ضمها بين ذراعيه وقال:

- شكراً، يا الهي، أنت بخير. لو فقدتك، يا صغيرة...

... كأنها في الجنة بين ذراعيه. رفع ذقنها ليجبرها على النظر اليه... فبدا لها انساناً جديداً... انسان لم تعد ابتسامته ساخرة، بينما عيناه تلهثان حناناً. عانقها، فتفرّق الحراس واختفت سيلين. قال جيرفيه:

- فعلت ذلك عن قصد. انا سمعتها... كنت أريد قتلها.

- آه لا، لا. لم تكن تدري ما تفعله. بدت بعد ذلك مذعورة، ألم ترها؟

- سأعلمها ان تهدىء من روعها. دائماً تفعل ما تريده، لكن انتهى الأمر الآن. أين هي؟ أين ذهبت؟

- كلا يا جيرفيه، ارجوك... لا تعاقبها. دعها تذهب، ارجوك، يا حبي... افعل ذلك من أجلي.

- لا أدري اذا كنت قد فهمت ما جرى، يا حبيبتي. أمرت الحصان ان يدوسك. لو لم أكن في الجوار، لقتلك في اللحظة.

- لكنها لم تكن تقصد قتلي. أصيبت بلحظة جنون ولم تعد قادرة على السيطرة على الحصان. انا سمعتها تطلب النجدة. آه، يا الهي. اشعر بدوخة. افضل الجلوس، من فضلك.

حملها جيرفيه بين ذراعيه حتى المنزل. وضعها في سريرها وقال لها:

- انت الآن تحت تأثير الصدمة، وبحاجة الى الراحة. سأطلب لك منوماً.

أمسكته بمعصمه وقالت:

- لا، لا تذهب.

جلس على طرف السرير وأمسك يديها وقال بهدوء:

- هذا جنون!

- لولا هذا الحادث... لما قلت لي شيئاً.

- لا أدري. ربما... وربما لا. ما كان يجب ان أقول شيئاً في كل حال. لكن... لم استطع ان أفعل غير ذلك.

- ما زلت حتى الآن لا أعرف ماذا تقصد بالضبط.

قطّب حاجبيه وقال:

ـ احبك وأريدك ان تصبحي زوجتي. لكن حياتي، هنا، في منطقة الكامارغ. لا استطيع العيش في مكان آخر. أنا لست مثل جان- مارك، يا جوسلين. المنطقة في دمي.

ـ لكنني انا ايضا لست مثل كاميليا. احب هذا المكان ولست بحاجة لحياة مضطربة في المدينة. نعم، أعرف بأن هذا المكان كئيب في فصل الشتاء. فانا لم اعد طفلة، يا جيرفيه. ألم أبرهن بعد بأنني قادرة على العمل والتكيّف؟

ـ أنت ما تزالين في التاسعة عشرة من العمر وحياتك في بدايتها، يا جوسلين!

لأول مرة يناديها باسمها الصغير، فغمرها الفرح، وقالت ورأسه بين ذراعيها:

ـ اذا كنت لا تريدني، سأعود الى انكلترا، وأصبح عانساً أفسدت حياتها بسبب شاب فرنسي.

ضحك جيرفيه وضمها بين ذراعيه وقال:

ـ ماذا سيقول والدك ان تزوجت من رجل فرنسي؟ ربما يرفض.

ـ يجب أولاً ان يأتي ويسأل عنك.

ـ كلا، أنا الذي سأذهب لرؤيته.

ـ سيفاجأ المسكين. ما كتبت له عنك ليس مديحاً. كنت أصفك بالوحش احياناً...

ـ رائع!

ـ لقد أريتني نجوم الظهر، يا حبيبي. عندما قرأت لي البصارة مستقبلي، قلت لي بأنني لن أتعرف الى زوجي في فرنسا، انما في انكلترا. مما زاد شكوكي.

ـ كنت أعتقد بأنك كنت تميلين الى رفاييل.

ـ آه يا جيرفيه، يا لهذه السخافة. انه شاب مراهق.

ـ وأنت امرأة خبيرة، أليس كذلك؟

احمرّت، وبخجل، نهضت تعانقه وقلبها ينبض بجنون. فوجدت نفسها في الجنة. بعد قليل قال:

ـ ليس لائقاً ان أعانقك في وسط غرفتك. هيّا، قومي لنخبر العمة. ستسرّ كثيراً لأنها أحبتك.

فتح جيرفيه النافذة، وسطعت الشمس الحارقة وغرّد العندليب. منطقة الكامارغ تلمع في الحر. هذا البلد المنغلق، امبراطورية شاردة... الأرض الغريبة، الصحراوية، التي تؤمها الثيران والخيول البيضاء والطيور الوردية... وتسحقها رياح الميسترال وتحرقها الشمس.

لكن، هذا البلد أصبح الآن، بالنسبة الى جوسلين، بلدها، وبلد قلبها.